

اقرأ

محمد محمود زيتون

# الصين والعرب عبر التاريخ



دار المعارف



# الصين والعرب

## عبر التاريخ



محمد محمود زیتون

# الصّين والعرب عبر التاريخ

إقرأ  
٢٥٣  
دار المعارف

اقرا ٢٥٣ - يناير ١٩٦٤

ملتزم الطبع النشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع. ٢٠٢



## تقديم

توثقت العلاقات بين العرب والصين منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا من الزمان . . . . . ومنذ ذلك التاريخ الطويل إلى يومنا هذا . . . . . وللصين في « التراث العربى » حظ موفور . . . . . سبقوا به سائر الأمم المتحضرة في تبيان ما تركه أهل الصين — في مختلف العصور ، وعلى تباين الأوضاع — من معالم الحضارة ، ولعارف الثقافة .

وكان تناول المؤلفين العرب للآثار الصينية على جميع أشكالها أمرًا يدعو إلى الدهشة والعجب ، وخصوصًا إذا عرض على المقاييس المنهجية الحديثة . . . . . ذلك أن العرب — فيما تناولوه عن الصين — كان رائدهم الصدق فى الرواية ، والدقة فى المشاهدة ، والبعد عن الأهواء والنزعات . . . . . ففى الرحالة ابن بطوطة مثلاً . . . . . على الرغم من المضايقات التى صادفته بالصين . . . . . وعلى الرغم من مظاهر الحفاوة التى قوبل بها هناك من التجار والأمراء الحاكمين على السواء . . . . . لا يتورع من الحديث عن الصين بقلم رزين مبرأ من المدح والقدح . وإذا كان هذا هو حظ العرب من « المنهج » . . . . . الذى توصلوا به إلى غاية لا وراءها من حيث الصدق والثاقة ، فإنهم لم يكونوا أقل حظًا من هذا التوفيق ، من حيث « القيمة

العلمية « التي على أساسها يقاس كل عمل ثقافى . . . مهما يكن لونه . . . فالعرب ولا شك كانوا أيضاً أسبق من غيرهم فى تنمية الثروة الفكرية . . . على مستوى قوى . . . بل إنسانى . . . بما سجلوا من معلومات تنبض بالحياة . . . عن بلاد نائية عنهم بآلاف الأميال . . . والمسالك إليها غير مأمونة العواقب . . . من أخطار البر والبحر . . . ومن الكائنات الطبيعية سواء فى ذلك الوحوش والأناسى .

ولسنا نزعم أن انطباعات الصين عند العرب وجدت لديهم التنظيم والتصنيف ، مما هو ظاهر فى المؤلفات الحديثة . . . ولكن من العدل . . . وليس من التبرير لعجز أو تقصير . . . أن نقول إن مادة العرب عن الصين كانت غزيرة ووافية ومنوعة . . . بحيث تستطيع بكل جدارة أن تغطى جميع الجوانب الثقافية . . . إذا وجدت من يؤلف بين شتاتها ، ويخلص غثها من سمينها . ويرد فروعها إلى أصولها . . . عندئذ يحق لنا أن نقول عن العرب إنهم حقاً أول رواد الثقافة الاجتماعية . . . بما قدموه لعلم الأجناس البشرية أو ( الأنثروبولوجيا ) . . . وهذا الكتاب . . . على صغر حجمه . . . محاولة متواضعة

لاقتحام هذا الباب .

الإسكندرية

محمد محمود زيتون



## الفصل الأول

### تجارة ... أم حضارة

#### العرب والعالم :

قبل أن تبرز شمس الإسلام على جزيرة العرب . . . ألف أهلها رحلتين كل عام من مكة . إحداهما إلى الشام صيفاً . . . والأخرى إلى اليمن شتاء . . . فكانت هاتان الرحلتان بداية لتكوين علاقات جديدة بين العرب وبين غيرهم من الشعوب . ولئن كانت هذه العلاقات ، قد اتسمت — كما يبدو للنظرة الأولى — بالطابع التجارى ، فإنها كانت بمثابة الطريق الذى درجت عليه السياسة الخارجية للعرب ، فى صورة بدائية . ولما انتشر الإسلام فى أرجاء الجزيرة ، انتقل العرب انتقالات أبعد مدى ، مما كانوا يهدفون إليه من قبل ، فعرفوا — عن طريق الدعوة والفتح — بلاداً كثيرة كالحبشة ومصر وبلاد الفرس والروم والمغرب . . . وعبروا إلى أوربا ، بعد الفتح الأندلسى ، واختراق جبال البرانس . . . وركبوا البحار وفتحوا الجزر . . . كما ولوا وجوههم شطر المشرق ففتحوا فارس والهند والسند والصين . . . وعززوا مراكزهم فى تلك البلاد . . . التى وردت فى التراث العربى قديمه وحديثه شعراً ونثراً . . .

وكان لهذا التراث أكبر الفضل على الثقافة الإنسانية ، لأنه احتفظ بمعالم هذه الروابط والصلات . . . بين العرب والأمم التي عرفوها . . . واستطاع الغربيون والمستشرقون أن يترسموا - في أحاديثهم عن الحضارة العربية - خطى العرب . . . أينما رحلوا وحلّوا . . . وأن يتبينوا مواطن التأثير والتأثر ، في تفاعلهم مع هذه الأمم . . . القاصي والداني منها على السواء .

ما أبعد الصين ! . .

كان العربي القديم - إذا أراد التعبير عن المكان البعيد - ذكر الساحل الشرقي للجزيرة العربية . . . فهذا عمار بن ياسر يقول للنبي : « والله لو هزمونا حتى أبلغونا سَعَفَات ( هَجَر ) لغرفنا أننا على الحق ، وأنهم على الباطل » .

وكان النبي عليه السلام ، في معرفته بالبلدان ، أبعد مدًى ، وأوسع أفقاً من عمار وغيره ، فقد كان يذهب في التجارة إلى الشام قبل البعثة . . . وروى عنه قوله : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . . . وما أبعد الصين عن هجر . . . عاصمة البحرين . . . الواقعة على ساحل الجزيرة شرقاً .

ومن المؤكد أن النبي لم يرحل إلى الصين . . . ولا إلى ما دونها بكثير . . . ولكن هكّذا جاءت الرواية عنه . . . وسواء كان هذا الحديث صحيحاً أم ضعيفاً ، فإن علماء الحديث قد اتفقوا على جواز العمل بالحديث الضعيف . . . في

فضائل الأعمال . . . وأكد ذلك الإمام الحافظ ابن دقيق العيد الذى توفى سنة ٧٠٢ هـ .. وفى مثل هذا الحديث حفز للعرب على اختراق الآفاق . . . فى طلب العلم . . . ولو كان ذلك فى الصين . . مضرب الأمثال فى البعد والاختلاف . . ومهما يكن من شيء . . فقد ورد ذكر الصين على لسان العرب . . فى فجر الإسلام . . ثم فيما بعد ذلك من العصور . . ولكن يحق لنا أن نتساءل : لماذا أراد العرب أن يعرفوا بلاد الصين ؟ ومتى عرفوها ؟ وكيف وصلوا إليها ؟ وعلى يد من ؟ ثم من ؟ وما أثر العرب فى الصين ؟ وما أثر الصين فى العرب ؟ وكيف تطورت هذه العلاقات بينهما عبر السنين ؟ وهل كان لهذه العلاقات أثرها . . فى إثراء الثقافة العربية . . وبالتالى فى المعرفة الإنسانية ؟ . . .

وفما يلي من الصفحات محاولة جادة للإجابة عن هذه الأسئلة . . استناداً إلى أوثق المصادر العربية والإفريقية . . التى ديجتها أقلام عربية وصينية . . بعضها قديم . . وبعضها حديث . . منها المترجم ومنها الأصيل . . . ولعل فى كشف اللثام عن هذه الآثار . . ما يزيد الصلات التى بين العرب والصين قوة . . خصوصاً أن الصين وحدها تشتمل على ربع سكان العالم . . وتعمل الآن فى ميادينها العمرانية بسرعة مذهلة . . بعد النكبات والمحن . . التى تلقتها من أيدي المستعمرين جملة وفردى . . .

فاستطاعت بنضالها المرير أن تلاحق بركب الحرية . . . وتمضى  
فى سبيل السلام .

لماذا . . الصين ؟

نعم . . . لماذا أراد العرب القدامى أن يعرفوا بلاد الصين . .  
على الرغم من طول المسالك ووعورتها ، ومع اختلاف الظواهر  
الجغرافية ، والمظاهر الحضارية فيما بين الأمتين . . . ؟ !  
التجارة لاشك هى أهم البواعث التى حملت العرب الأولين  
على تبادل المنافع مع غيرهم . . ولو مع أهل الصين . . .  
وإذا كان العرب — قبل الإسلام — قد فعلوا ذلك ، فخيراً  
فعلوا . . . وبرهنوا على حبهم للحركة والانتقال ، والتماسهم كل  
وسيلة للتعارف مع سائر الشعوب .

وإذا كان الإسلام قد افترض الحج على الناس مرة فى  
كل عام . . . فيفقدون على البيت الحرام رجالاً وعلى كل ضامر  
يأتين من كل فج ميق . . . فقد شرع الله للمسلمين فى  
مشارك الأرض ومغاربها هذه العبادة ليشهدوا منافع لهم . . .  
فى موسم الأمان والإيمان . . .

أيهما كان الأسبق فى الاتصال بالآخر ؟ نستطيع أن  
نقول إن الصين مثلاً كانت السبابة ، عندما استقر بربوعها  
أولاد نوح ، ثم صنعوا السفن وأرسلوا عليها إلى سائر الأمم  
مندوبين يحملون الهدايا ويوجهون الدعوة لزيارة البلاد النائية .

المتطرفة . . . قد يكون هذا صحيحاً إذا صدقت الرواية التاريخية . . . ولكن مما لا شك فيه أن العرب بعد ظهور الإسلام . . . حرصوا على إذاعة دعوته في المشرق والمغرب . . . فحملوها التجار والغزاة . . . ونهضوا بها . . . ووجدت حينما كانوا تربة صالحة فنمت وترعرعت . . . وعلى ذلك يكون « دين العرب » الحديد . . . حافزاً قوياً للعرب على التعرف بالأمم . . .

حافز آخر . . . هو أن قصة ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج . . . قد وردت في القرآن الكريم . . . فكان من الطبيعي أن يشدوا الرحال . . . للوقوف على موضع السد . . . وموطن يأجوج ومأجوج . . . والتحقق من أقوال المفسرين والمحدثين . . . بهذا الصدد . وذلك كما يقولون من باب العلم بالشيء . . . فهل كان ذلك بالصين ؟ على كل حال لقد جاء في الحديث الشريف « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . . . فليطلبوه ولو في الصين .

وأخيراً نرى أن العرب ممن تشبث بالقول الحكيم عقولهم . . . وتشرب له أسماعهم . . . ويحفزهم ذلك إلى التماس أغياته وأهدافه . . . فقد قيل « إن<sup>(١)</sup> الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض . . . أدمغة اليونان ، وأيدي أهل الصين ، وألسنة العرب » . وهذا التفوق في الصناعات عند الصين ،



مما لمس العرب عجائبه وغرائبه ، فجليبها التجار إلى بلادهم ،  
 ودارت حولها أحاديث المجالس . فالتقطها المؤلفون وسجلوها ،  
 وأضاف إليها الرحالة ما شهدوه بأنفسهم .  
 من أجل هذا كله أبرز العرب معالم الحضارة الصينية ومعارف  
 ثقافتهم . . . . ومهما يكن من وفاق أو خلاف في الكتابات  
 العربية عن الصين . . . . ومهما يكن مصدرها شهادة أو رواية  
 أو دراسة فإن العرب بعملهم هذا كانوا الرواد الأولين في ميدان  
 علم ( الأنثروپولوجيا ) .

### في سبيل التجارة :

وقديماً . . . . كان العرب أهل حركة ونشاط ، في البر  
 والبحر على السواء . . . . وكان لبعض القبائل العربية قوافل  
 باسمها تجتاز الممالك والأقطار ، صاعدة هابطة ، بين السهول  
 والبطاح ، وكان لبعضها الآخر سفنها الشراعية ، تمخر عباب  
 الخلجان والبحار والمحيطات ، يستقلها أهل التجارة ، وعشاق  
 المغامرات ، من الجغرافيين والمؤرخين والفلاسفة والسفراء والغزاة .  
 وتعتبر المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب من أقدم حضارات  
 العالم وأرقاها ، وأحفلها بمظاهر الحياة على اختلاف جوانبها ،  
 وكانت « سبأ ومعين » مهد الحضارة الحميرية من سنة ١١٥ ق.م  
 حتى سنة ٥٢٥ م ، تلك الحضارة التي ازدهرت أيما ازدهار  
 بسبب الموقع الذي تتميز به . . . . فهي ملتقى خيوط شبكة

المواصلات بين الشرق والغرب ، فتوثقت عن طريقها الصلات العربية مع الهند والصين وسواحل إفريقيا وداخلها وروسيا .  
 في هذه القرون السحيقة ، لم تكن أوروبا تعرف شيئاً عن إفريقيا غير شواطئها ، وكان وجود بلاد الشرق الأقصى في نظر الأوروبيين إحدى أساطير الأولين ، أما العرب فكانوا أسبق الشعوب ارتياداً لهذه البلاد .

وبلا شك . . . كانت طرق القوافل أيسر وأوفر من طرق الملاحة ، فقد كانت متاجر الصين تأتي عبر المدن الشهيرة مثل سمرقند وبغداد ودمشق وحلب وسائر مراقي البحر الأبيض المتوسط ، ومنها إلى أوروبا . . . وتتصل بالهند كذلك - عن طريق القوافل لدى مرورها بفارس وكشمير وموانئ الخليج الفارسي وأشهرها ( سيراف ) . . . ومنها تقطع المراكب إلى عدن حيث تاتق السلع الوافدة من الصين والهند بحراً ، آخذة طريقها إلى السويس والإسكندرية ، وموانئ الشام ومدنها ، فيأتي أرباب التجارة من جنوة وفلورنسة وبيزا وكتلونة لنقل متاجر الشرق وكنوزه إلى أوروبا ، التي كان يبهرها بريق الطرائف الشرقية أياً كان نوعها ومصدرها .

على أن أهم تلك الأسواق التجارية ما كان في عدن . . . التي طالما تبودلت فيها منتجات الهند والصين مع منتجات الحبشة ومصر ، وأرقاء النوبة ، فضلاً عن العاج والذهب . . . كل ذلك كان يستبدل به هناك الحرير والخزف وغيرهما من

واردات الصين :- وكذلك كان التجار - ومعظمهم من العرب - يجلبون إلى الصين المنسوجات الكشميرية والعطور ، ومنتجات بلادهم أيضاً من منسوجات صوفية ومرجان وحيول ، مع نفائس أوربا كالأجواخ القرمزية الزاهية الألوان التي اشتهرت بها البندقية .

ولما كان أهل الصين وعلى رأسهم الملوك والأباطرة يغرمون بشراء الحيول وانتقائها من أجود القصائل ، فقد كانت للصين تجارة رائجة فيها مع البلاد المجاورة لها من جهة الغرب مثل سمرقند وبخارى وخنوا والعراق ، وهذه البلاد بدورها أصبحت تتصل بالصين للتجارة عن طريق القوافل بصفة دورية منتظمة ، وقد أسهب بدر الدين حى الصينى مؤلف كتاب « العلاقات بين العرب والصين » فى تحديد معالم طرق تلك القوافل ، قبل الميلاد بقرن من الزمان .

ولما زادت الروابط التجارية فى القرن الثانى للميلاد بين الصين والرومان ، لم يعد الأوربيون يقفون بتجارتههم عند الشام وأرمينيا ونصيبين ، وإنما وجدوا الطريق ممهداً لهم إلى الصين عبر بلاد الفرس ، فقضدوا إليها على سبيل المتاجرة والمغامرة .

وأراد الفرس أن يستبدوا بتجار أوربا الذين يعبرون بلادهم فيما بين الغرب والشرق الأقصى ، فتحولت التجارة من طريق القوافل البرية إلى طريق البحر ، مما شجع ( ماركوس أوريليوس أنطونيوس ) على السفر إلى الصين سفيراً للتجارة سنة ١١٦ ميلادية .

وليس معنى هذا أن الطرق البرية قد انقطعت نهائياً فيما بينهما

عبر الشام ومصر . . . بل استمرت حتى لثرى اسم  
( الإسكندرية ) محرفاً في كتابات المؤلفين الصينيين في القرن  
الثالث الميلادي ، كما ورد ذكر غيرها من موانئ مصر والشام ،  
مما يدل بصفة قاطعة على أن الأقطار العربية كانت همزة الوصل  
الوثيقة بين الشرق والغرب قبل ميلاد المسيح عليه السلام .

ومما يروى أن عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني قال  
يوماً لحالد بن الوليد : ما تذكر ؟ فقال : أذكر سفن الصين  
وراء هذه الحصون ، كما أن أهل الصين كانوا يطلقون كلمة  
( تاشي ) على العرب ، وأغلب الظن أنها محرقة عن كلمة  
( تاجر ) ، وفي هذا دليل على أوجود العنصر العربي بالصين . . .  
ممتازاً في ميدان التجارة بالنسبة لغيره من الوافدين على البلاد .  
وثمة رأى آخر يقول إن هذه الكلمة الصينية ربما تكون تحريفاً  
للكلمة الفارسية ( تازي ) ومعناها العرب .

ومهما يكن من شيء فإن العرب قد عرفوا الصين إما عن  
طريق البحر مباشرة وإما عن طريق البر عبر بلاد العجم ،  
أما عن الطريق البري فقد تبودلت الصلات بين الطرفين عبر  
( جانج - آن ) والعراق . وفيما بين كانتون والخليج العربي ، فسمع  
الصينيون كثيراً عن العرب فيما قبل الإسلام على الأقل بقرنين من  
الزمان ، كما أن العرب كانوا أسبق معرفة بالصين من الصينيين  
أنفسهم ببلاد العرب .

أما المؤلفات الصينية فقد حفلت بذكر العرب وبلاد العرب

ونتف من تاريخ الإسلام والخلفاء الراشدين ، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب « جيوتانج شو » أى تانغ القديم ، وفيه فصول ضافية عن العرب . وكذلك كتاب « شنتانغ شو » أى تانغ الجديد ، وأيضاً كتاب « تونج ديان » وفيها جميعاً أخبار عن أفواج العرب القادمين إلى الصين منذ بداية النصف الأخير من القرن السابع الميلادى . . . . وهكذا بدأ العرب يتعرفون على أحوال الصين . . . فى سبيل التجارة .

### ومن أجل الحضارة :

لم تكن التجارة هى الحافز الوحيد للعرب على الاتصال بالصين ، فإن الحضارة العربية التى علا كعبها فى اليمن ، ورسخت قدمها فى ( حمير ) أو ( تبع ) ، قد أخذت طريقها إلى الصين ، فى خطى ثابتة ، عندما غزا تبع أسعد أبوكرب بالنى فارس من التبابعة ، تلك الصحارى الشاسعة التى تعرف اليوم باسم ( هضبة التبت ) ، حيث الهواء الطيب والخير العميم « ولا يزال الإنسان أبداً بها ضاحكاً مسروراً ولا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار ، والطرب فى الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام ، وفى أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية وسميت بذلك بمن ثبت فيها ورتب من رجال حمير » ، فهم ثبتت أى ثبتوا فيها ، واستطابوها مقراً ومقاماً ، وعمروها ، ووطنوا صلاتهم بمن حولهم حتى صارت ( التبت )



على مر الأجيال داخلة في نطاق الصين ، ولا يغفل العرب المؤرخون والجغرافيون ذكرها كلما ذكروا الصين ، لأنها جزء لا يتجزأ منها .

وهناك تحولت التبت من البداوة إلى الحضارة ، فقد نشر الحميريون بها ما جاءوا به من أقصى الجنوب من جزيرتهم ، وتعلم أهل التبت منهم القراءة والكتابة ، وأعدوا قسيهم وسهامهم للدفاع عن كياناتهم عند المنافذ والأبواب التي تؤدي إليهم عند ( مرو ) و ( باب الصين ) و ( سمرقند ) التي أولها تحريف لكلمة ( شمر ) أي ( شمريرعش ) أحد ملوك التبت ، وقد سميت باسمه اعتزازاً بأجداد الأبوّة والأجداد ، وفي هذا يقول دعبل الخزاعي من أبيات مشهورة مفاخرًا بالحميريين المهاجرين إلى التبت :

وهم كتبوا الكتاب ( بباب مرو )

و ( باب الصين ) كانوا الكاتبين

وهم ستموا السهام ( بسمرقند )

وهم غرسوا هناك ( الشبطينا )

وفي صنم المغارب فوق رمل

يسيل بلونه سيل السنين

« وكانوا يسمون ملوكهم ( أي في التبت ) تبعًا لإتباع اسم

تبع ملك اليمن ثم تغيرت لغاتهم عن الحميرية » كما يقول المسعودي .

وإذا نحن تابعنا هؤلاء المهاجرين العرب إلى التبت ، مع

المؤرخين ، وجدناهم في مطلع القرن الرابع الهجري على فريقين : أحدهما لم تمتد إليه الدعوة الإسلامية فظل حتى ذلك التاريخ على عبادته الأولى التي جاء بها من اليمن ، والآخر بلغته من الدعوة ومضات خاطفة ، لم تسلم من الشرك والوثنية . . . وفي كلا الحالين كان نظام الفريقين لا يزال قبيحاً .

فهذا أبو دلف مسعر بن مهلهل الينبعي المتوفى سنة ٣٣١ هـ وعضو بعثة أمير خراسان نصر بن أحمد الساماني يحكي لنا عن رؤية مبعوثي ( قالين بن الشخير ) ملك الصين إلى هذا الأمير وقد بعثهم يخطبون ابنة الأمير المسلم لابن ملك الصين . . . فلم يقبل لأن الشريعة تمنع زواج مسلمة بكافر ، وإذا أصر على ذلك طلبوا منه أن يسعوا في زواج ابنة من إحدى بنات ملك الصين فرضي ، وخرج الفد في ذلك ، ومعهم أبو دلف الذي وصف لنا أحوال كل القبائل التي مر بها في طريقه ، حتى وصل إلى قبيلة ( البغراج ) فوجد « لهم أسبلة بغير لحى ، يعملون بالسلاح ولهم ملك عظيم يقول إنه علوي من ولد يحيى بن زيد » ووجد عنده أبو دلف مصحفاً مذهباً على ظهره أبيات من الشعر في رثاء زيد .

وأدرك أبو دلف أنهم يعبدون ذلك المصحف ، وأنهم يقولون : « زيد ملك العرب » و « على بن أبي طالب » إله العرب » وأن الحكم وراثة في العلويين من ذرية زيد . وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم شاخصين إليها بأبصارهم . وبزعمهم

أن « إله العرب » ينزل منها ويصعد إليها ، وملوك الزيدية عندهم ذوو أنوف قائمة ، وعيون واسعة ، يعيشون على الدخن ويأكلون لحوم الضأن الخراف دون النعاج .

وهناك نقول : أليس في وجود الزيدية بالتبت ، دليل على انتقال موجة من مهاجري اليمن — وهي موطن الزيدية — إلى تخوم الصين ، حيث استقر آباؤهم القدامى من حمير منذ خمسة قرون على الأقل ؟

ويمضي أبو دلف في وصف القبائل التي ينزل بها حتى يحدثنا عن « قبيلة تبت » ولهم مدينة من القصب ، وفيها مسلمون ونصارى ومجوس ، ويؤدون الجزية للملك الزيدية العلوي البغراحي ، ونظام الحكم عندهم انتخابي لا وراثي كما عند القبيلة السابقة . وعندهم سجن يودعون به المجرمين ، وصلاتهم إلى قبة الإسلام . وينتقل صاحبنا حتى يصل إلى موضع يقال له « القلب » وفيه قبائل بلوية عربية فيقول : « فيه بوادي عرب ممن تخلف عن " تبع " لما غزا بلاد الصين . . . يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ، ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا ، يعبدون الأصنام . . . » والملك فيهم وراثي في الأسرة الحاكمة ، ولهم أحكام وقوانين تنظم حياتهم الاجتماعية ، والزنا حرام عندهم ، ولهم مشروب يصنعونه من التمر ، « وملكهم يهادى ملك الصين » . تلك هي الحضارة العربية الأصيلة الوافدة من اليمن على أيدي التباينة وقد استقرت في ( التبت ) ، ولم تعد معالمها تخفى

أمام المؤرخين حتى القرن الرابع الهجرى . فسجلوا هذه المعالم من جميع الأوجه : الأصل . اللغة . الثقافة . المأكل . والملبس . والمشرب . المسكن . الدين . القانون . نظام الحكم . حتى الأمور التي ربما لا تخطر ببال أحد ، وهي من الأهمية بمكان عند علماء الحضارة ، مثل المصايف والمشاتي ، فقد حرص أبو دلف على ذكرها حين يقول : « لهم مصايف ومشاتي في مياه ورمال » .

وتلك هي بعض مشاهدات رحالة عربي ، ومندوب رسمي في بعثة المصاهرة التي تمت بين أسرة مالكة مسلمة من خراسان وبين أسرة مالكة غير مسلمة من الصين ، حدثنا عنها على هذا النحو المستفيض . وهو في طريقه إلى الصين ، ولم نر فيما كتبه عن مختلف القبائل التي مر بها ونزل فيها أقوى دلالة ، وأفصح تعبيراً عن الحضارة مما قاله عن تلك البقية الحميرية التي استقرت على هضبة التبت مجاورة للصين . . . ثم صارت مع الزمن جزءاً من كيانها العام ، إلى وقتنا هذا .

وكان لا بد أن تندمج التبت في الصين يوماً من الأيام ، لعدم وجود ما يمنع من ذلك ، فقد كان الطريق ممهداً بينهما ، و « الباب » يوصل القبائل من هنا إلى هناك . . . من غير انقطاع . . . حتى لقد أصبح هذا الباب اسم بلد في الرمل بين هذه الهضبة وتلك ، يقيم فيه رجال الحدود الصينية ، « ومنه يستأذن لمن يريد دخول الصين من قبائل الترك وغيرهم » كما يقول أبو دلف ، الذي يصف لنا هذا الوادي بما يستحقه

من الحسن والتزهة والجمال .

وفي القرن الثامن الهجري نرى الدمشقي العربي ( - ٧٢٧ هـ ) يتابع الحضارة التبتية مستعيداً ما سبق أن ذكره المسعودي المؤرخ ودعبل الشاعر . ثم يقول بعدها عن أهل التبت « وهم حضر وبدو ، ولغتهم : التركية ، وكانوا أولاً يسمون من يملكهم <sup>(١)</sup> "تُبَّع" فصاروا يسمونه "نجاقان" وناحتهم بين الترك والهند والصين » وهم أشبه بالعرب في الألوان والخلق من سائر الأمم .

### حضارة الصين :

ترجع الحضارة الصينية إلى أحقاب سحيقة تمتد إلى عصور ما قبل التاريخ . . . ويرمزون إليها بقولهم « سان' خونغ ووتى » ومعناها ثلاثة ملوك وخمسة سلاطين . أما أول الملوك الثلاثة فهو ( صوى تشين ) الذى عاش قبل التاريخ وينسبون إليه اكتشاف عنصر النار بنظره إلى النجوم . وعاش الثانى ( فوهى ) من سنة ٢٨٥٢ ق . م . حتى سنة ٢٧٣٨ ق . م . وقالوا إنه منظم عام التقويم ، وأكبر رجال الثقافة الصينية ، فقد شرع نظام الزواج . وابتكر لأهل الصين ما يأكلون وما يشربون ، وابتكر لهم آلاتهم الموسيقية ، وغرس أشجار التوت ، وعلمهم صناعة الحرير ، واستأنس الحيوانات الضارية . كما أنه أول من عرف عبادة الإله . وعاش بعده الملك ( شين نونغ ) فيما

( ١ ) نخبة الدهر .



بين سنة ٢٧٣٧ ق . م . وسنة ٢٧٠٥ ق . م . وقالوا إنه اخترع الآلات الزراعية ، واستخرج خواص النباتات الطبية . وبموت ( شين نونغ ) انتهى عصر الملوك الأولين ، فورثه خمسة سلاطين ضعاف وصارت البلاد في عهدهم . طمع الغزاة الطامعين من القبائل الهمجية . . . . فصددهم أول سلاطينهم وهو ( خوانغ تى ) ومدته من سنة ٢٦٩٧ ق . م . إلى سنة ٢٥٩٧ ق . م . ويقال إنه حين ضل الطريق وهو في ميدان القتال اخترع الإبرة المغناطيسية فنجا من الهلاك وانتصر على العدو . وفي عهده تعلم أهل الصين غزل الحرير واستكثروا من زراعة التوت وتربية دودة القز .

وتوالى بعده على الترتيب : ( جوانغ صو ) و ( تى كو ) و ( ياو ) و ( شون ) ، وقد حظى الأخيران من ( كونفو شيوس ) حكيم الصين بالتقديس . . . . فجعلهما مثال الفضيلة والحكمة ، واعتبر عصرهما العصر الذهبي للصين .

وفي القرن الثالث قبل الميلاد أطلق اسم ( الصين ) على هذه البلاد التى جمع شملها ووجد قبائلها ( لينج تسنج ) أحد ملوك أسرة تسين ( ٢٤٦ - ٢٠٧ ق . م ) وفي عهدها أقيم السد الأعظم المعروف بسور الصين العظيم وهو إحدى عجائب الدنيا ، دعت إلى إنشائه ظروف العدوان الذى شنته على البلاد قبائل الهون عدة مرات على الحدود ، فصدتهم جيوش ( شى خوانغ تى ) . وقد لمس العالم آثار الحضارة الصينية خلال ثلاثة قرون

هى عصر أسرة ( تانغ ) أى الفترة الواقعة بين سنة ٦١٨ ميلادية وسنة ٩٠٥ م . حيث انتقلت صناعة الورق والبارود — كما يقول محمد توضع فى كتابه « الصين والإسلام » — إلى أوروبا ، عن طريق العرب . ثم إلى شمال أفريقيا وإسبانيا . عقب موقعه ( تالاس ) التى دارت رحاها بين الصين والعرب سنة ٧٥١ م . وفى هذه الفترة شق أهل الصين عدداً من القنوات والترع فى طول البلاد وعرضها ، فيسرت بذلك نقل البضائع من فارس والعراق والشام وسائر الأقطار المغربية إلى الصين ، فكانت ترسو المراكب والقوافل على ميناء ( خانفو ) أو ( كانتون ) ، وبها ظهرت أول مجالية للتجار العرب قبل غيرهم من التجار ، وكان لهم بها قاض يفصل بينهم فيما أشكل عليهم من أمور دينهم وأقاموا مسجداً لا يزال معروفاً بها إلى اليوم ويسمى ( نخواى تشينغ ) ومعناه : الشوق إلى النبى .

من هذا يتبين أن حضارة الصين قد لفتت أنظار العالم إليها ، فصارت مطمعاً للدول المجاورة لها ، فى عصر أسرة ( يوان ) التى تنحصر مدتها فيما بين سنة ١٢٧٧ وسنة ١٣٦٧ ميلادية ، قدم ( جنكيزخان ) من شمال منغوليا ، واجتاح بعسكره الولايات الشمالية من بلاد الصين ، وفى أيام ( قبلای خان ) حفيده ، تحولت العاصمة من ( نانكين ) إلى ( كاشغر — پيكن ) . وقد جعل المغول شرطين لتولى أهل الصين الأصليين الوظائف . هما : معرفة لغة المغول ، واعتناق دين الإسلام . لهذا نجد

ثمانى ولايات من اثنتى عشرة يحكمها ولاية مسلمون .  
 وفى هذا العهد قدم إلى الصين مغامر من البندقية هو  
 ( ماركو پولو ) ومعه أبوه وعمه ، وقد رحب به ( قبلای خان )  
 وحمله رسالة إلى البابا وزوده بالتحف والطرائف . . . .  
 شجعتة بعد العودة إلى بلاده على استئناف الرحلة إلى الصين والمقام  
 بها نحو سبعة عشر عاماً — ومن العجيب أن ربان سفينته  
 ودليل رحلته كان رجلاً عربياً اسمه أبو ماجد .

ولن ينسى التاريخ موقف الصين من الأفيون سنة ١٨٣٩  
 حينما أحرقت منه اثنتين وعشرين ألف صندوق ؛ لأن هذا المخدر  
 الفتاك وارد إليها من أوربا ، فشبت نار الحرب بين الصين  
 وإنجلترا ، وانتهت بإرغام الصين على دفع ثمنه ، وفرضت عليها  
 أيضاً غرامة تفوق ثمنه أضعافاً مضاعفة . . . مع التنازل  
 لإنجلترا عن جزيرة ( هونج كونج ) .

وتحالفت الدول الاستعمارية ضد الصين عندما طردت  
 سنة ١٩٠٠ جميع الأجانب من البلاد التى بدأت تضطرم  
 بالثورة منذ ذلك الحين . . . ومنذئذ والصين — فى خضم السياسة  
 العالمية — أشبه بسفينة نوح . . . وهى تنجرى بأهلها فى موج  
 كالجبال . . . وتمضى قدماً نحو أهدافها التى رسمتها  
 لنفسها . . . حاملة معها تجارب ناضجة . . . ووصايا  
 حكيمة . . . ما تزال تنحدر عبر القرون من أيام حكيم الصين  
 ( كونفوشيوس ) .

والآن تبلغ مساحة الصين ثلاثة ملايين ونصف مليون ميل مربع ويبلغ عدد سكانها اليوم أكثر من ستمائة مليون نسمة - يغلب عليهم العنصر المغولي - وفيهم من المسلمين نحو عشرين مليوناً ، إذ يوجد هناك من الأديان : الإسلام والوثنية والبوذية والكونفوشيوسية والتاوية ، ونظراً لاتساع رقعتها التي تضم ربع سكان العالم ، تعددت فيها اللغات والأديان والعادات والأجناس . وتتكون بلاد الصين حالياً من هضبة منغوليا شمالاً ، والسلاسل الجبلية المحيطة بهضبة التبت جنوباً ، وتشمل الصين الأصلية البلاد الواقعة إلى الجنوب من سور الصين ( الذي أقامه ملوك الصين سنة ٢٠٠ ق . م . تقريباً لحماية حدود البلاد من الشمال الغربي لصد غارات رعاة الخيول أي سكان منغوليا ) وتتكون من ثماني عشرة مقاطعة ، وتصم الصين الأصلية ، نحو ٩٠٪ من سكان الصين ، والباقي في المقاطعات الأربع . . الواقعة على الحدود . . وهي : منشوريا ومنغوليا وسينكيانج والتبت . . وأكثر المسلمين في هاتين الأخيرتين ، واللغات السائدة هناك هي : المنغولية والصينية التبتية والتركية .

وتشتهر الصين بالأرز والقمح والذرة والشاي والقطن والحرير والفحم والحديد والقصدير والبتروول ، والدارصيني والعقاقير والدجاج والإوز والفواكه ما عدا بلح النخيل .

وتعتبر ثورة الصين الشعبية سنة ١٩٤٩ نقطة تحول جديد في تاريخ الصين من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،

ويوجد في جنوبي شرقى آسيا نحو ١٥ مليون نسمة من أصل صينى ، ولكنهم ينتمون سياسيًا إلى دول أخرى .

### حملة من اليمن :

يقسم المؤرخون تاريخ اليمن فيما قبل الإسلام إلى ثلاثة عصور :

١ - من بدء الخليقة إلى تبّع أبى كرب .

٢ - من أبى كرب إلى ذى نواس .

٣ - من ذى نواس إلى ظهور الإسلام .

وقد ورثت الدولة الحميرية مدنية زاخرة عن سابقتها سباً ومعين في جنوب الجزيرة ، وتميزت هذه الدولة بفتوحاتها ومغامرات ملوكها ، وانتفرد العرب بتسجيل مآثرها . وحدد مؤرخو الإفرنج فترة هذه الدولة فيما بين سنة ١١٥ ق . م و سنة ٥٢٥ م واشتهر من ملوكها ( شميرعش ) الذى وطئ أرض العجم وفارس وخراسان وخرب مدينة الصغد وراء جيحون . وبنى المدينة التى عرفت باسمه فيما بعد ، ثم أصابها التحريف وهى ( سمرقند ) . وكانت وفاته سنة ٣٠٠ م .

ويقال إنه كان يطلق عليه ( ذو المغازى ) لأنه فى إحدى الروايات سار بجيش عدته ٣٠٠ ألف مقاتل غزا بهم العراق وخراسان واليمن والحيرة وفارس حتى بلغ بهم أرض الصين . وكان الملك الصينى فى ذلك العهد - كما يقول النويرى -



وزير شديد البأس على الهمة ، اتفق مع الملك على خداع ملك اليمن القادم لغزو بلاده ، وتظاهر له بالشكوى من مولاة . وأظهر استعداداته لخدمة بجيش اليمن ، وإرشاد الغزاة إلى مسالك الصين ، ففرحوا به ، وسار وساروا خلفه ، فما لبثوا أن أدركوا أنهم وقعوا في كمين أعداه لهم وزير الصين إذ انتهى بهم إلى أرض سبخة أشبه بالفلات السحيقة ، فأجهدهم السير ، واستبد بهم العطش حتى ماتوا ، وبهذا نجت بلاد الصين من غائلة الغزو .

وفي رواية أخرى أن الملك أسعد أباً كرب ( ٣٨٥ - ٤٢٠ م ) قد غزا أذربيجان وهزم الترك ، وهادنه ملوك الهند ، وبعث ولديه للغزو . فذهب ( حسان ) إلى الصغد ، ومضى ( يعفر ) إلى الروم ، وكان حسان قد استمر في زحفه حتى وصل إلى بلاد الصين . وهناك وافاه أخوه فرجعا منها بالغنائم والأسرى ، كما أن يعفر قد ذهب إلى غزو القسطنطينية فعاد منها بالجزية ثم حاصر روما ، ورجع إلى اليمن تاركاً بالصين قوماً من التبابعة ( الحميريين ) الذين استوطنوها وتناسلوا فيها .

وعند المسعودي أن كليكرب بن تبع المعروف بالأقرن هو الذي تقدم زاحفاً نحو خراسان والصغد والصين ، كما أن البكري — وهو<sup>(١)</sup> من أهل القرن الرابع الهجري يحدثنا عن جزيرة « أدال » في الخليج العربي « وفيها بنو معن وكثير من العرب » .

## الصين بين العرب والعجم :

تملك النعمان بن المنذر بلاد الحيرة فيما بين سنة ٥٨٥ وسنة ٦١٣ م ، وفي بلاطه كانت تلتقي وفود العرب والصين والروم والهند ، وقد تحدث ابن عبد ربه الأندلسي في « العقد الفريد » عن قدوم النعمان على كسرى ملك العجم وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا بلادهم وملوكهم ، وجاء دور النعمان فذكر العرب وجعلهم أفضل الأمم ، غير أن كسرى أخذته عزة الملك ، فتحدث عن الروم والهنود وعرج على الصين فذكر « اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسياتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكاً يجمعها » ، ثم ذكر الترك والخزر وانتهى إلى العرب فحط من قدرهم وأساء إليهم ، فما كان من النعمان إلا أن كبج بجماح غضبه ورد على كسرى وفند أقواله ، وأشاد بخصال العرب التي فضلوا بها غيرهم من الأمم ، ولا سيما حسن الوجوه ، فهم على قوله : خير من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة .

أليس في هذه المجالس ما يدل على أن العرب كانوا على إلمام بالشعوب النائية عنهم ولا سيما الصين في عصر ما قبل الإسلام ؟ ! وسواء كان هذا الإلمام عن طريق المشاهدة أم الرواية ، فإن العرب لم يكونوا بمعزل عن العالم ، بل توفرت لديهم فرص الالتقاء بوفود هذه الشعوب ، فتعارفوا ولم يعد من العسير

عليهم أن يميزوا بين الهندي والصيني .  
ولا شك أن موقعة القادسية سنة ٦٣٦ م كانت بداية النهاية  
لدولة الساسانيين ، كما أن عروش الأكاسرة قد تقوضت إلى  
الأبد على إثر موقعة نهاوند سنة ٦٤٢ م ، وكان يزدجرد آخر  
عنتقود في دولة بني ساسان ، ففر إلى الصين مستنجداً بإمبراطورها  
( تانغ تائي جونغ ) الذي اعتذر له ، وقد أحس بالنفوذ العربي  
في زحفه نحو الشرق كأنه الطوفان الجارف .

### قتيبة . . في الصين :

وفي سنة ٩٦ هـ ( ٧١٥ م ) وباسم دولة بني مروان . .  
وبأمر من الوليد بن عبد الملك . . تحرك القائد المظفر قتيبة  
بن مسلم الباهلي ، فتقدم على رأس جيش كثيف من العرب  
إلى خراسان وما وراء النهر ، ثم استراح بمرو . . وأخذ يشعل  
حماسة جنوده . . حتى زحف بهم إلى بيكند ، ثم كاشغر ،  
حيث فتح بلاد الصين من الغرب ، فأخذت تتساقط بين يدي  
كتائبه كأوراق الخريف المدن الصينية : الصغد ، رامتين ،  
بخارى ، وarden ، كش . فلما دخل سمرقند ، صلى لله شاكراً  
ما فتح عليه ، وأمر بإقامة أول مسجد بها ، وحطم أصنامها ،  
وعلى الرغم من انقضاخ بخارى عليه مرة بعد مرة ، إلا أنه عزز  
حامية بها وأنشأ بها جامع قتيبة ، وسرعان ما ترجم القرآن ،  
وانتشر الإسلام في أرجاء التركستان الصينية ثم الشمال الغربي للصين .

ومضى قتيبة بجحافل جيشه حتى فتح "خوقند"، فقد سلمت له  
بلا مقاومة . . ودخل بعدها خاشغر ، واستنجد التتار بأهل  
الشمال من تركستان الصينية ولكن حصونهم المنيعة في كاشغر  
ويارقند وختن قد سقطت تباعاً تحت معاول العرب الفاتحين  
حتى وصلوا إلى ( طرفان ) . . متوغلين في أرجاء الصين .  
وأدرك ملك الصين مقدار الخطر المحدق بعرشه من جراء  
هذا الزحف الجارف ، فأرسل إلى قتيبة أن ابعث إلى رجلا  
منكم يخبرني عنكم . . فاختار عشرة رجال أو يزيدون ، وعلى  
رأسهم هبيرة بن مشمرج الكلابي . . وقد حرص قتيبة على أن  
يكون أعضاء الوفد أحسن من في المعسكر رجاحة عقل وبسطة  
جسم وفصاحة لسان وشدة بأس ، وأمدهم بعدة وافرة من السلاح  
واللباس والعطر وأركبهم أحسن الجياد عنده ، فلما تأهبوا للوفادة  
على ملك الصين ، سأل رئيس وفده قائلاً : يا هبيرة ، كيف  
أنت صانع ؟ قال : أصْلَحَكَ اللهُ ، قل ما شئت أقله . قال  
قتيبة : سيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق ، لا تضعوا العمام  
عنكم حتى تقدموا البلاد ، فإذا دخلتم على ملك الصين ،  
فأعلموه أني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطا بلادهم ، وأنهم  
ملوكهم ، وأجبي خراجهم .

ومثل وفد قتيبة بين يدي ملك الصين ، وهم في ثياب بيضاء،  
تحتها الغلائل ، والطيب يفوح منها ، وفي أرجلهم نعال من  
جلود ، ودخلوا على الملك وحوله عظماء البلاد ، فجلسوا ،

ولما لم يوجه إليهم الملك كلاماً نهضوا وانصرفوا ، وانفرد الملك بمن حوله وسألهم : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً ما هم إلا نساء ، ما بقي منا أحد حين رأيهم إلا وجد رائحتهم .  
فلما كان الغد ، استدعاهم الملك فلبسوا الوشى وعمائم الخبز ، ثم دخلوا عليه وخرجوا . . . لم يلبسوا بينت شفة . . . وسأل الملك أصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى .

وفي اليوم الثالث أرسل الملك إليهم فجاءوا في السلاح . . . وقد لبسوا البيض والمخافر ، وتقلدوا السيوف ، واختصروا الرماح ، وتنكبوا القسي واعتلوا صهوات الخيل المطهمة . . . وأقبلوا كالجبال حتى دنوا فركزوا رماحهم وشمروا ، وعيونهم تقدح بالشرر كأنها عيون الأفاعي . . . ولم يكادوا يطانون الباب حتى داخل الملك وأصحابه فزع وهلع ، وقذف الله الرعب في قلبه . . . وأمرهم بالانصراف . . . فانصرفوا وهم يتطاردون بالخيول . . . والتفت الملك إلى رجاله يسألهم الرأي فيما رأوا ، فقالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط .

وانتهى الرأي إلى استدعاء أميرهم وكبيرهم ، فجاء هبيرة . . . فقال له الملك حين دخل عليه : لقد رأيتم ملكي العظيم ، وعلمتم أنه ليس أحد يمكنكم مني وأنتم في بلادى ، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي . . . وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتم . قال : سل . فقال : لم صنعتم ما صنعتم من الزى في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ . . . قال : أما زينا الأول فلباسنا

في أهلينا وريحنا عندهم ، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا ،  
وأما اليوم الثالث فترينا لعدونا ، فإذا هاجنا هيج وفرع كنا هكذا .  
فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم . . فانصرفوا إلى صاحبكم  
فقولوا له ينصرف ، فإنني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه . .  
وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه . فقال له هبيرة : كيف  
يكون قليل الأصحاب من أول نخيله في بلادك ، وآخرها في منابت  
الزيتون ؟ ! ( . . إحدى مدن الصين وقد ذكرها ابن بطوطة في  
رحلته ) . . . وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها  
وغزاك ؟ ! وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت  
فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه ، وقد حلف ألا ينصرف  
حتى يطاء أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية .

وارتاع الملك من هذه اللهجة القوية ، فرجع عن التهديد  
والوعيد ، وفكر ملياً ثم قال : نحن نخرجه من يمينه ، ونبعث  
تراب أرضنا فيطؤه ، وبعض أبنائنا فيختمهم ونعطيه الجزية  
التي يرضاها .

وأمر فجىء بالتجف والطرف فقدمها إلى هبيرة . . فلان  
جانبه وجنح إلى السلم ، وكتب إلى قتيبة بما جرى . . وأنه قبل  
عروض الجانب الصيني ورضى له أن يتحلل من اليمين التي  
أقسمها . وفي هذا يقول سواد بن عبد الملك السلولي يخاطب قتيبة ،  
ويشجعه على ما فعل :



لا عيب في الوفد الذين بعثهم  
 للصين أن سلكوا طريق المهج  
 كسروا الجفون على القذى خوف الردى  
 حاشا الكريم ( هبيرة بن مشمرج )  
 أدى رسالتك التي استدعيته  
 فأناك من حنث اليمين بمخرج  
 لم يرض غير الختم في أعناقهم  
 ورهائن دفعت بحمل سمرج

وأوفد قتيبة رجله الشجاع هبيرة إلى الوليد بن عبد الملك  
 فمات في الطريق ولم يصل ، فرثاه سواد بأبيات منها :  
 لله درّ ( هبيرة بن مشمرج )

ماذا تضمن من ندى وجمال

وبويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة ، وهو الذي أهلك  
 القائد الشاب محمد بن القاسم فاتح السند ونكل به أيما نكال ،  
 ثم قلب لقتيبة ظهر الحجن فعزله واستأمر على جيشه وكيماً ،  
 فتقاتلا حتى جرح قتيبة ، وقتل ومعه الكثير من أهل بيته ،  
 فانشقت عصا الفاتحين الغزاة ، وضعفت فتوح العرب ، ووهنت  
 عزائمهم عن المضي نحو المشرق الأقصى ، وانطفأت جذوة  
 حماسة الجنود ، وانحسرت هذه الموجة عن بلاد الصين . .  
 ولكن آثارها لم تزل منذئذ باقية . .

## « تالاس » :

على الرغم من مقتل البطل الفاتح قتيبة بن مسلم ، ظلت الولايات التي فتحها في قبضة العرب ، فوطدوا بها حكمهم ، مما شجع التتار فيما بعد على التوغل في قلب الصين .

وعندما طمع أهل الصين في استرداد إحدى الولايات وهي شاش ، استنجد أحد أمراء الصين — بعد مصرع والده — بأبي مسلم الخراساني ، فأرسل زياد بن صالح الذي أخذ ثورة شريك بن المهدي ، وهناك في معركة ( تالاس ) الفاصلة سنة ٧٥١ م ، لقي العرب من الظفر على الصين ، ما جعلهم في هذه البلاد أقوى نفوذاً وأشد مراساً من ذي قبل .

وقد كان من ثمار هذه الموقعة المشهورة ، والتي ذكرها الثعالبى في « لطائف المعارف » — نقلاً ورواية عن الجوينى في « المسالك والممالك » — أن العرب قد أسروا من الصين عدداً كبيراً . كان من بينهم عمال مهرة في صناعة الورق . فتعلموها منهم . . وما لبثوا أن نشروا هذه الصناعة وأذاعوها في سائر البلاد العربية .

وتلت هذه الموقعة فترات انقضاض . . حاول فيها الولاة الأتراك أن يخرجوا من قبضة العرب . . واستعانوا بأباطرة الصين . ولكن هؤلاء كانوا من الحكمة والسياسة بحيث خافوا على عروشهم من سطوة العرب . . . ولا سيما بعد أن جربوا حظهم في موقعة تالاس . .

وعلى العكس حفظ العرب لأباطرة الصين هذا الجميل . . .  
 فلما اجتاحت الثورات الداخلية بلادهم . . . خف العرب المواطنون  
 لنجدتهم، وردوا للإمبراطور ( سوتسنج Su-Tsung ) مكانته،  
 وارتدت زوبعة التمرد والعصيان على أعقابها . . . وظلت راية أسرة  
 تانج الحاكمة خفاقة حتى منتصف القرن العاشر الميلادي ،  
 بفضل النجدة العربية التي بعث بها الخليفة العباسي أبو جعفر  
 المنصور سنة ٧٥٧ م وكان قوامها عشرين ألف مقاتل . . . حتى  
 لقد أشاد المؤرخ الصيني ( تانج شو ) في تاريخه بهذه النجدة  
 العربية التي قضت نهائياً على الفتن الداخلية سنة ٧٥٧ م . . .  
 وأشار إليها أيضاً ( بريتشنايدر ) في كتابه المعروف عن أقدم  
 صلات الصين بالعرب . . .

فما كان من الإمبراطور إلا أن أجزل الثواب للعرب ، ومنحهم  
 الاستقلال في الولايات التي ارتضوها . . . نظراً لتزايد نسبتهم  
 العددية فيها ، وما لبث العرب أن ازدادوا في الصين نفوذاً ، وإلى  
 قلوب الأباطرة محبة وقرباً . . . فقد طابت لهم الإقامة في  
 ( ككتون ) . . . وانضموا إلى المستوطنين بها من تجار العرب . . .  
 وتزوجوا مثلهم من نساء الصين . . . وتناسلوا ، فكان منهم جيل  
 جديد أطول قامه وأشد قوة ، وأقرب إلى السمرة منه إلى الصفرة .

## الفصل الثاني الإسلام والصين

من الأندلس إلى الصين :

تتفق مصادر التاريخ الإسلامى كلها على انتشار الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية . . بحيث لا نجد صعوبة في معرفة بداية ظهور هذا الدين الجديد في بلاد كانت خاضعة للأكاسرة أو القياصرة ، ومن ثمة انتقل إلى ما يليها من البلاد ، فصار هذا الأمر حقيقة ثابتة لا تقبل التزييف أو التحريف ، لهذا لا سبيل إلى إنكار أن القرن الأول من الهجرة لم يكد ينقضى حتى بسط الإسلام جناحيه أحدهما إلى الشرق فبلغ الصين ، والآخر إلى الغرب فبلغ الأندلس ، وذلك في عصر بنى أمية ، وفي خلافة الوليد بن عبد الله وسليمان بن عبد الملك من بعده ففتح طارق بن زياد الأندلس سنة ٧١١ م ، ودخل قتيبة بن مسلم بلاد الصين سنة ٧١٥ م وذلك بعد أن استقر الإسلام في البلاد التي دون كل منهما تدريجياً .

وعلى الرغم من هذا التوافق الزمني ، فإن بدء دخول الإسلام إلى الصين لا يزال تكتفه طبقات كثيفة من الغموض ، مما أدى إلى خلافات بين المؤرخين ، على عكس إجماعهم - فيما يتعلق بفتح الأندلس - على حقائق موحدة . .

ثم إن الأمر بالنسبة للصين قد اتسم بالأساطير على نحو تكاد معه حقائق التاريخ أن تفلت من بين أصابع المدقق المحقق.. ويرجع ذلك إلى ندرة مصادرنا عن هذا الجانب بالذات ، مع وجود مراجع صينية تؤرخ لهذه الفترة ، وتخالف في خطوطها الرئيسية ما هو موجود بين أيدينا من المراجع .

### أول مسجد في الصين :

ويؤكد الكثير من المؤرخين أن أول مسجد أقيم خارج الجزيرة العربية ، هو المسجد الذي بناه المسلمون في الصين . متى ؟ وأين ؟ وعلى يد من ؟ هذا ما نود أن نحاول الجواب عنه ، بشق طريق وسط الأساطير والحقائق ، حتى يتبين لنا المحيط الأبيض من المحيط الأسود من الحق .

قبل إن سعد بن أبي وقاص قدم إلى الصين ومعه ثلاثة من الصحابة ومعهم أربعون رجلاً ، بدعوة من أحد أباطرة أسرة (سوى) . وأطلق الصينيون على سعد بن أبي وقاص اسم وقاص بابا أو بابا الأول ، كما أطلقوا على الثلاثة الآخرين بابا الثاني ، وبابا الثالث ، وبابا الرابع . فلما ألقوا عصا التسيار بمدينة (كانتون) شيدوا جامعاً أطلقوا عليه « جامع الذكرى » وذلك في السنوات الأولى من حكم الإمبراطور (كاتشو) الذي يقع فيما بين سنة ٦١٨ و سنة ٦٢٧ م ، وأشرف على بنائه وزير صيني من أسرة (تانج Tang) . وكان يحب النبي عليه السلام

فسماه جامع الذكرى أى ذكرى النبي محمد .

وقد أحيطت هذه الرواية بنسيج أسطوري شفاف ، إذ أضيف إليها أن الملك الصينى ( وين تى ) رأى مناماً ، فبعث على أثره يدعو محمداً عليه السلام لزيارة الصين ، فاعتذر له النبي وبعث نيابة عنه هؤلاء الرجال وعلى رأسهم خاله سعد ابن أبى وقاص . . الذى حمل معه صورة النبي سرّاً ، وقدمها للملك فسرّ بها غاية السرور ، وعلقها على أحد جدران القصر ليسجد لها ، فمنعه من ذلك ابن أبى وقاص ، فسأله عن ذلك فقال : إن النبي منعنا من عبادة الصور والتماثيل ، وأنه لا إله إلا الله ، فأمر الملك ببناء مسجد فى ( كانتون ) وجعل من بعض أرواقته له سكناً ، وسماه جامع ( خوى شينغ ) أى الشوق إلى النبي ، وقيل إنه لا يزال قائماً إلى يومنا هذا .

وأقامت هذه الجماعة التى سماها أهل الصين ( هوى - Hui Hui <sup>(١)</sup> ) فى منازل فاخرة من طراز جديد بكانتون . وكانت طاعتهم لأمرهم المسلم مضرب الأمثال .

وقد تكون هذه التسمية التى أطلقها الصينيون على هذه الجماعة المسلمة تحريفاً للضمير ( هو مكرراً ، كإشارة إلى عقيدة التوحيد التى هى جوهر الإسلام ، حسب نص سورة الإخلاص « قل " هو " الله أحد » . وعلى كل حال فهذه



الكلمة الصينية تبدو وكأنها ترجمة لكلمة « المسلمين » .

ويؤكد المؤرخ الصيني صاحب كتاب « أصل المسلمين في الصين » وعنوانه ينطق بالصينية هكذا : Hui-Hui gnan lui : أن الإسلام وصل إلى الصين سنة ٦٢٨ م عندما قدم العرب من قبل النبي رداً على البعثة الصينية التي جاءت لدعوته لزيارة الصين ، وكانت البعثة الإسلامية على رأسها القيس والأديس والوقاص ، مات الأول والثاني في الطريق ، أما الوقاص فقد كتب له البقاء حتى لقي إمبراطور الصين ، وأخبره بالقرآن . . ثم عاد إلى النبي ثلاث مرات عن طريق البحر : المرة الأولى كانت من أجل الكتب الدينية ، والثانية لإحضار نسخة من القرآن واستشارة النبي في شئون نشر الدعوة بالصين . فقال له النبي : نخذ معك ما نزل من الآيات ، وأما الآيات التي سأتلها من الوحي ، فسأبعث بها إليك عند نزولها ، وفي المرة الثالثة جاء يزور النبي في مرضه ، ثم عاد بعدها إلى الصين ، ومعه نسخة كاملة من القرآن الكريم ، ثم وافاه القدر المحتوم في ( كانتون ) حيث مات ودفن ، فأطلق اسمه على مسجد لها الأشهر .

واستناداً إلى المصادر الموثوق بصحتها ، نستطيع بكل اطمئنان أن ننفي نفياً قاطعاً وصول سعد إلى الصين ، وبهذا تتبدد جميع الخيوط الواهية التي نسجتها الخرافات حول سفره إلى الصين سواء كان مرة أم عدة مرات .

وإذا كان تاريخ الهجرة يوافق سنة ٦٢٢ م ، فهل يصدق عاقل أن الإسلام وصل إلى الصين بعد ست سنوات ، حيث كان النبي مشغولاً بشئون الدعوة بالمدينة ، وقد هاجر إليها مستنصراً بأهلها ، وجمع كلمة المهاجرين والأنصار ، استعداداً للجهاد ؟ !

حقاً . . . لقد بعث النبي رسله إلى الروم والحبشة ومصر ، ولكن ليس لدينا ما يثبت أنه أرسل خاله أو عمه أو ابن عمه داعية للإسلام في الصين بالذات .

هذا وقد عثر أسقف روسي يدعى ( پالاديوس Palladius ) سنة ١٨٧٨ بيكين على مرسوم صيني مترجم عن أصل عربي نشره العلامة الإنجليزى ( مورجان ) سنة ١٨٨٢ فى مجلة ( ذى فونيكس ) ، وفيه أن ( ابن حمزة ) عم النبي قدم الصين فى السنة السادسة من حكم الإمبراطور ( تسنج كوان ) بما يوافق سنة ٦٣٢ م ، ومعه نسخة من القرآن ، وفى صحبته ثلاثة آلاف جندي ، وقد سرت الإمبراطور بمقدمه لحسن خلقه وتقواه ، وأبقاه مع جيشه فى العاصمة ( جانج آن ) ، وبني لهم جامعاً بها . ولا اتسع نطاق الدعوة ، أمر ببناء مسجدين آخرين ، أحدهما فى ( نانكين ) والآخر فى ( كانتون ) . . ثم أخذ ابن حمزة ينظم مع أصحابه وسائل الدعاية للدين الإسلامى فى الولايات . . . وجعل منهم أئمة وخطباء ومؤذنين ، كما وضع للمسلمين تشريعاً من أربعة عشر قراراً ، لتنظيم معاملاتهم .

وما لبث فوج آخر من المهاجرين عن طريق البحر أن قدموا من بلاد العرب ، واستوطنوا إقليم « ( ينان ) » ، فأنشئ جامع ( كانتون ) سنة ١٢٤ هـ - سنة ٧٤٢ م ، ثم جامع مقبرة العطر الشذى ، وسرى في كتابات العرب عن هذه الفترة ، كثرة الوافدين على الصين ، وتزايد المساجد تبعاً لذلك ، ولا سيما فيما بين القرنين السابع والعاشر للهجرة ، بما يلفت الأنظار ، ويدعو إلى الدهشة .

ولعل المبالغة في الأرقام التي وضعها الرواة عن هذه الحشود الوافدة ، تكفي سبباً لدحض هذه التصورات ، التي قد يكون الداعي إليها ، رغبة المسلمين الأولين من الصينيين في نيل شرف السبق إلى الإسلام على أيدي كبار الصحابة ولا سيما أقارب النبي ، وربما يكون الخلط بين الأسماء ناجماً عن تحريف اسم تاجر عربي اسمه ( الوقاص ) إلى ( سعد بن أبي وقاص ) .  
ويكاد ينعقد إجماع مؤرخي الصين أنفسهم على أن بلادهم عرفت الإسلام سنة ٦٥١ م أي سنة ٣٠ هـ في الشهر الثامن من السنة الثانية لحكم ( تاوتسونج ) أحد ملوك أسرة ( تانج ) ، بينما تحكي روايات أخرى أن أول ظهور الإسلام كان فيما بين سنتي ٦١٨ و ٦٢٦ م أي مع تاريخ الهجرة أو ما حول ذلك بستين .

أما الباحث الأمريكي ( ماسون Masn )<sup>(١)</sup> فيرى أن أول

ظهور الإسلام بالصين كان سنة ٦٥١ م ، وربما قبل ذلك ،  
ويؤيده ( فوتونج بيان ) المؤرخ الصينى المسلم وجمهرة كبيرة  
من مؤرخى الصين .

ويقول المؤرخ الصينى ( تشين يوان ) إن أول وفد عربى  
قدم إلى الصين كان فى عهد الخليفة عثمان ، وهو الذى بعث  
وفداً من المسلمين لمرافقة سفير الصين لدى عودته إلى بلاده ،  
فلقى هذا الوفد من الإمبراطور كل تكريم .

ويؤكد المؤرخون الصينيون المعاصرون أن ( مسجد الذكرى  
الذى يقال إن ابن أبى وقاص قد أقامه فى ( كانتون ويسميه  
أهل الصين ( واى شن تزي . . . لا يزال موجوداً . . وأن هناك  
شاهداً على قبر سعد خارج المدينة ، وعليه اسمه مكتوب بخط  
واضح وتاريخ بناء المسجد سنة ٧٤١ م . وأن إمام المسجد  
الذى كان يعمل به فيما بعد يدعى "بدر الدين السوكاكي  
( - ٩٥٢ هـ = ١٥٤٥ م ) .

هذا وقد حدثنى شخصياً الدكتور مصطفى الأمير الأستاذ  
بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية - بعد عودته من الصين  
حيث كان يعمل بجامعة أستاذاً للدراسات المصرية القديمة -  
أن أول مسجد أسس خارج الجزيرة العربية كان مسجد  
( بيكين ) وذلك سنة ٦٢٠ م ، وأن على مدخله لوحة تذكارية ،  
مكتوب عليها باللغة العربية أن مؤسسه ( ابن وقاص ) .

وورد فى بعض الكتب الصينية أن الإسلام قد بدأ ينتشر

في أرجاء الصين من ثلاثة مراكز رئيسية هي : ( كانتون ) و ( يانج شو ) و ( جوان شو )<sup>(١)</sup> حتى لقد بلغ عدد الأسر المسلمة ثلاثين ألفاً في مدينة واحدة هي ( قنجنفو Kanjanfu ) ، وكان بها مساجد أربعة ، بخلاف المساجد التسعين المنتشرة في سائر الولايات ، والتي أنشأتها حكومة الصين على نفقتها .

### الأنبياء . . في الصين :

ومما ذكره المسعودي في « مروج الذهب » أن رجلاً يدعى ( ابن وهبان )<sup>(٢)</sup> من بني هبار بن الأسود خرج من البصرة إلى ( سيراف ) ، واجتاز ممالك الهند حتى بلغ مشارف الصين ، ثم وصل إلى ميناء ( خائفو ) أو ( كانتون ) ، وكان مقر الملك يومئذ بمدينة ( حمدان ) أكبر مدن الصين . والتحق ابن وهبان بمقابلة الملك ، متشفعاً بقراءة من بيت النبوة ، فلقبه الملك أحسن لقاء ، وأكرم مثواه طول مدة إقامته بالصين حتى غادر البلاد إلى العراق ، وأدرك ابن وهبان أن أهل الصين يعبدون النار ويسجدون للشمس والقمر ، وكأنما عز عليه أن يرى هذه الوثنية ، فدار بينه وبين الملك حوار نوره فيما يلي موجزاً لما فيه من طرافة .

( ١ ) العلاقات بين العرب والصين .

( ٢ ) واسمه في بعض الكتب : ابن وهب القرشي وأن زيارته للصين هذه

كانت سنة ٢٥٦ هـ .

العربي : لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأنفسها وأوسعها  
 ريعاً وأكثرها أموالاً وأعقلها رجالاً وأنداءها صوتاً .  
 الملك : فما منزلة سائر الملوك عندكم ؟

العربي : ما لي بهم علم .  
 الملك : إنا نعد الملوك خمسة ، فأوسعهم ملكاً الذي يملك العراق  
 لأنه في وسط الدنيا ، والملوك محدقة به ، ونجد اسمه  
 عندنا ملكاً ، وبعده ملكنا هذا ، ونجده عندنا ملك  
 الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ، ولا أضبط  
 لملكه من ضبطننا لملكنا ، ولا رعية من الرعايا أطوع  
 لملكها من ريعتنا ، فنحن ملوك الناس ، ومن بعده  
 ملك السباع ، وهو ملك الترك الذي يلينا ، وهم سباع  
 الإنس ، من بعده ملك الفيلة ، وهو ملك الهند ،  
 ونجده عندنا ملك الحكمة أيضاً لأن أصلها منهم ،  
 ومن بعده ملك الروم ، وهو عندنا ملك الرجال ،  
 لأنه ليس في الأرض أتم خلقاً من رجاله ، ولا أحسن  
 وجوهاً منهم ، فهؤلاء أعيان الملوك ، والباقون دونهم .  
 وهنا أمر الملك بسفط فيه كتب ، وأوماً إلى الترجمان أن

يطلع ابن وهبان على كتاب منها به صور ، ثم سأله :  
 أتعرف صاحبك ( أى النبي محمداً ) إن رأيته ؟

العربي : وكيف لي برؤيته وهو عند الله عز وجل ؟  
 الملك : لم أرد هذا ، وإنما أردت صورته ؟



العربي : أجل .

ونظر ابن وهبان إلى الصور التي يحتويها السفط ،  
ثم قال : هذا نوح عليه السلام في السفينة بمن معه ،  
لما أمره الله عز وجل ، فعم الماء الأرض كلها بمن فيها  
وسلمه ومن معه .

الملك : أما نوح فصعدت في تسميته ، وأما غرق الأرض  
كلها فلا نعرفه ، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ،  
ولم يصل إلى أرضنا ، إن كان خبركم صحيحاً فعن  
هذه القطعة ، ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند  
وغيرنا من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم ،  
ولا نقل إلينا أسلافنا ما وصفتم ، أما ما ذكرت من  
ركوب الماء الأرض كلها ، فمن الكوائن العظام التي  
تفرع النفوس إلى حفظه ، وتتداوله الأمم ناقلة له .  
العربي : ( بعد أن رأى صورة أخرى ) وهذا موسى عليه السلام  
وبنو إسرائيل .

الملك : نعم ، على قلّة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه .  
العربي : ( بعد أن اطلع على صورة ثالثة ) وهذا عيسى بن مريم  
عليه السلام ، وهو على حماره ، والحواريون معه .  
الملك : لقد كان قليل المدة .

العربي : وهذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى الله  
عليه وسلم ( وقد صوروه وهو على جمل ، وأصحابه من

حوله ، فى أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل ، وفى  
أوساطهم حبال ، علقوا فيها المساويك . . .  
الملك : صدقت ، لقد ملك قومه أجل الممالك ، إلا أنه  
لم يعاين من الملك شيئاً ، إنما عاينه من بعده ، ومن  
تولى الأمر على أمته من خلفائه .

وسأله الملك بعد ذلك عن الخلفاء وأزيائهم ، ثم  
عن الشرائع ، وعن عمر الدنيا فأجابه فرد عليه الملك  
بأن النبي لم يقل هذا ، ولم تختلف فى ذلك الأنبياء ،  
ثم سأله عن السبب فى حضوره إلى الصين .  
العربي : بما حدث على ( البصرة ) ووقعى إلى ( سيراف ) ،  
ونزعت بي همى إلى ملكك أيها الملك ، لما بلغنى من  
استقامة ملكك ، وحسن سيرتك ، وكثرة جنودك ،  
فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة ومشاهدتها ، وأنا  
راجع عنها إلى بلادى ، وملك ابن عمى ، ومخبر  
بما شاهدت من جلالة هذا الملك ، وسعة هذه البلاد ،  
وشيمك أيها الملك المحمود ، وسأقول بكل قول حسن ،  
وأثنى بكل جميل .

وأعجب الملك بهذا الجواب البارع ، وأمر بجهازه إلى  
( خائفو ) ، وأوصى به صاحب الولاية ، وظل يرفل فى ثياب  
النعمة حتى خرج من الصين عائداً إلى بلاده .  
ومن هذا يتبين أن ابن وهبان قد رحل إلى الصين من

العراق في عصر الدولة العباسية ، يحدوه إلى الرحلة داعي التزهد والفرجة . . في بلاد ذاع صيتها وشاع ذكرها على ألسنة الزاهدين الآيين ، فتاقت نفسه إلى رؤيتها « وما راء كمن سمعا » .  
ويتبين لنا أيضاً أن فن التصوير في الصين قد وجد مادة خصبة من حياة الأنبياء والمرسلين ومن بينهم نبي العرب ، فاحتلت تصاويرهم قصور الملوك في الصين ، كما شاعت هذه التصاوير في البلاط الفارسي ، وعليها مسحة من فنون الصين ، وسرى فيما بعد ، عناية المؤرخين العرب بهذه الحصيفة الصينية ، وماذا قالوا عنها في مؤلفاتهم .

من كونفوشيوس إلى محمد ( صلعم ) :

عرفت بلاد الصين منذ القدم بالعجائب والأساطير ، وسيطرت على عقول أهلها عقيدة غامضة هي عبادة الأرواح الخفية المستترة في مظاهر الكون أرضه وسماؤه ، كما تميز الشعب الصيني منذ آلاف السنين بتقديس الآباء والأجداد ، وتميزت عندهم عقيدة العامة عن عقيدة الخاصة ، وبلغ احترامهم لملوكهم حد القداسة ، والتترية عن الرذائل ، فعم السلام وساد العدل ، وما لبثت أن تغيرت أحوال الحاكمين والمحكومين ، فظهرت في القرن السادس قبل الميلاد فلسفتان تهدف كل منهما إلى الكشف عن سبيل للإصلاح الاجتماعي ، فاتجه (لاوتسه) إلى الزهد في الدنيا واحتقار شأنها ، بينما يرى (كونفوشيوس)

أن تنظيم المجتمع هو أساس كل إصلاح منشود .  
وانتصرت فلسفة كونفوشيوس ، وسادت تعاليمه ومبادئه التي  
استمد جذورها من أعماق التراث الصيني ومن طبيعة العصر  
الذي عاش فيه ، وكان سلوكه الشخصي وكبحه لجماح نفسه  
من أسباب انتشار فلسفته بسرعة ، فوصل هو إلى المناصب  
الرفيعة . . حتى لقد صار حاكماً عاماً على إحدى المدن الصينية ،  
فانقطع بها دابر الإجرام ، وكلفه الإمبراطور بتطبيق ذلك على  
سائر الولايات ومكنه من ذلك بأن جعله وزيراً ، وشهدت الصين  
على يديه تقدماً ملحوظاً في المجالين الأخلاقي والعمرائي على  
السواء .

حكيم هذه شخصيته . . وهذه مبادئه وآثاره جدير بعد  
موته أن يحظى بالتقديس من أهل الصين منذ القرن الرابع قبل  
الميلاد وأن تتعمق فلسفته في حياة الأجيال المتعاقبة عبر القرون ،  
وأن تكون ترجمتها العملية أن السلام هو خير وسيلة للإصلاح  
الاجتماعي .

ترى هل عمل المسلمون الوردون على الصين يقول نبهم  
الكريم : « الإسلام يجب ما قبله » ؟ .. ثم ماذا كان موقفهم  
من الكونفوشيوسية وهم بصدد نشر تعاليم دين جديد طارئ على  
أرض تسودها الخرافات ؟ وبمعنى آخر : هل قام صراع بين  
الديانتين على أرض الصين ؟ وماذا كانت النتيجة ؟

والجواب على ذلك مستمد من حقيقة العلاقات الوثيقة التي

توثقت عراها بين الصين والعرب قبل الإسلام ، فقد رأينا كيف كانت التجارة البرية والبحرية أول عوامل الربط بين الأمتين ، ومن طبيعة التاجر إيثار السلام ، والتماس الطريق إليه . . . صوناً للأرواح من الهلاك ، وحماية للأموال من الضياع .

فإذا كان هذا شأن التاجر العربي الذى يتعامل مع أى بلد أجنبي فإنه أحوج إلى هذه المعاملة مع الصين بعد اعتناق دين الإسلام ، لهذا نجد ظاهرة انتشار هذا الدين فى هذه البلاد تأخذ طابعاً خاصاً هي أنه لم ينتشر باستعمال السيف ، وإنما بالتعايش السلمى ، من حيث العقيدة والسلوك ، وبهذا شاع وذاع ، والأدلة التاريخية على ذلك شاهدة .

فقد ذكر كل من ( برومهال ) و ( فاسيليف ) تفاصيل السياسة التى اتبعها المسلمون فى الصين ، حتى لا يظهر دينهم متعارضاً مع دين الدولة ، فنجحوا — كما يقول ( أرنولد ) — فى تجنب الكراهية التى كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية كاليهودية والمسيحية ، بل كان المسلمون يصورون ديانتهم لمواطنيهم الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كونفوشيوس ، مع فارق واحد هو أن المسلمين يسرون وفق تعاليم أجدادهم فى الزواج والجنازات وغسل الأيدي قبل وجبات الطعام ، وتحريم الخنزير والخمر والدخان ولعب الميسر ، كما أن مؤلفات المسلمين الصينية كانت تمجد كتب كونفوشيوس وغيرها من الكتب الداعية إلى الفضائل ، وتشير إلى ما بين تعاليم

الإسلام وفلسفات الصين من تقارب وتشابه .

كان المسلمون حريصين على تجنب العنف في بث دعوتهم ،  
حريصين على أن تكون تصرفاتهم الاجتماعية خير دعاية للدين  
الذي جاءوا به ، فلم يتظاهروا بما يخالف المألوف ، حتى لا يتأذى  
منهم جيرانهم - في الأحياء من القرى والمدن - الذين على غير  
دينهم ، ولم يشعلوا نيران التعصب التي من شأنها خلق المشاكل  
والفتن والمذابح الأهلية ، بل اندمجوا في المجتمع الصيني وارتدوا  
الثياب القومية ، وأطالوا ضفائر شعورهم ، وبنوا مساجدهم على  
النمط الصيني ، ولم يلبسوا عمامتهم إلا عند الصلاة بالمسجد ،  
إيماناً منهم بأن الله لا ينظر إلى صورهم ، ولكن ينظر إلى قلوبهم  
وأعمالهم ، وأن التقوى في القلب ولا تظهر حقيقتها إلا في الأعمال .  
« وإنما الأعمال بالنيات » .

وفضلاً عن ذلك كانوا يسجدون أمام لوحة الإمبراطور  
الموجودة في كل مسجد ، كما تقضى بذلك الأوامر ، وكان  
كبار موظفي الدولة من المسلمين لا يتورعون عن إقامة الطقوس  
الوثنية المفروضة عليهم أيام العطلة والأعياد كمظهر ولاء يجب  
عليهم أدائه نحو الإمبراطور ، وما كان المسلم الصيني ليجد  
أي غضاضة في الظهور بملابسه الوطنية وهو يصلي لكونفوشيوس  
في المغابد الوثنية .

وباتباع هذه السياسة الحكيمة استطاع المسلمون أن يعيشوا  
في وئام وسلام في ظل الوثنية الصينية ، وأغلب الظن أن وصايا



كونفوشيوس الاجتماعية كانت مهد السلام الذى تربت الدعوة الإسلامية فيه ، فتمت وترعرعت ، وتمكن المؤمنون بها أن يتجنبوا كل تحرش واحتكاك بمواطنيهم المخالفين لهم ، فقلما اندلعت ألسنة الفتنة الداخلية ، وقلما كان للمسلمين فيها باع أو ذراع .

وعلى هذا النهج سارت الدعوة الإسلامية فى الصين عبر القرون والأجيال ، وبلغت من النجاح إلى الحد الذى جعل الكاتب الروسى فاسيليف فى القرن الماضى يتنبأ بأن الدين الإسلامى يوشك أن يصبح الدين القومى للإمبراطورية الصينية وأن يقلب — تبعاً لذلك — جميع الأوضاع السياسية فى الشرق رأساً على عقب .

ويحدثنا المؤرخون أن أباطرة الصين كانوا يعطفون على المسلمين عطف الآباء على الأبناء ، ويشقون فى ولائهم بما لا يوصف ، فبادلوهم حباً بحب وتقديراً بتقدير ، وطالما دبر الحاقدون مؤامرات ضد المسلمين لدى البلاط الصينى فباعت جميعها بالفشل ، وما زادت الأباطرة إلا تقريباً للمسلمين ووضعهم فى أجل المناصب وأهمها فى الدولة مدنية وعسكرية ، وبرهنوا على أنهم مواطنون صالحون فى كافة أعمالهم الأهلية والحكومية ، فقد استطاعوا التكيف بالبيئة الصينية ، وكانوا — كما وصفهم بعض الأباطرة — مواطنين مخلصين يعرفون ما لهم وما عليهم .

وفضلاً عن هذا ، حظى المسلمون فى الصين بامتيازات

لم يحظ بها غيرهم من الأجانب - وإن كانوا لا يعتبرون عن الصين أجانب - فأعفاهم الأباطرة من الضرائب ، بالرغم من كثرة عددهم ، وتمتعوا بكامل الحرية الدينية ، وأغدقوا عليهم الأموال ، ومنحوهم الأراضي الشاسعة ليزرعوا ما يشاءون ، ويعمروها كما يشاءون .

وكثيراً ما كانت المجاعات تفتاح بلاد الصين ، فيضطر الآباء إلى بيع أولادهم في الأسواق ، فكان المسلمون أول من يسارع إلى شرائهم بالآلاف . فربونهم على الإسلام منذ نعومة أظفارهم ، ويعاملونهم معاملة الأبناء . حتى إذا كبروا أصبحوا وقد تمرسوا بالحياة العملية ، وانتشروا في الأرض أحراراً ، ولم يعودوا عبيداً أرقاء .

حدث هذا مراراً منذ القرن الثامن عشر ، وحدث مثله سنة ١٩٠٠م عندما لقي المسيحيون حتوفهم على أيدي طائفة « المصارعين » في الصين ، وباع المسيحيون أبناءهم ، فلم يجلدوا من يشتريهم غير المسلمين ، الذين كان دافعهم الأساسي لهذا العمل إنسانياً خالصاً .

ولا عجب إذا كان ذلك من أهم العوامل التي جعلت عدد المسلمين في الصين يتكاثر باستمرار ، خصوصاً بعد أن توغل العنصر العربي في المجتمع الصيني وتزوج من الصينيات ، فكثرت النسل وسلمت السلالات الجديدة من العلل والأمراض الحبيثة الناجمة عن تعاطي المخدرات ، وارتكاب الفواحش .

ويجب ألا ننسى أن العنصر العربى المسلم فى الصين قد وجد عناصر أخرى تزيد من قوة وجوده ، واستمرار بقائه ، إذ التقي معهم على صعيد الصين مسلمون آخرون من أجناس أخرى مجاورة ، وإن كانت لا تصل إلى أهمية العنصر العربى الوافد والمقيم . . . من حيث الاندماج فى المجتمع المضيف وتجديد نسيجه بالحضارة الإسلامية . . وتغلغلها فى الحياة العامة.

### ملوك . . وملوك :

بين ملوك الصين ، وملوك العرب . . . علاقات قديمة ، معروفة فى كتب التاريخ عند مؤرخى الصين والعرب على السواء ، وفى طليعة المؤرخين العرب المسعودى الذى يرجع فى تاريخ هذه العلاقات إلى أحد ملوك التبابعة وهو ( أسعد أبو كرب ) الذى ملك الموصل وأذربيجان ، وانتصر على الترك ثلاث مرات ، ثم بعث ثلاثة من أولاده للغزو ، واجتياح بلاد الفرس ، وبلاد الصغد ( من بلاد أمم الترك وراء النهر ) ، وبلاد الروم . أما الأول فملك بلاد الصغد حتى ( سمرقند ) العاصمة ، وقطع المفاوز حتى وصل إلى الصين ، فوجد أخاه قد سبقه إليها ، فتوغلت جيوشهما معاً فى بلاد الصين ، ورجعا بالغنائم والأسلاب بعد أن تركا ببلاد الصين قبائل من ( حمير ) فهم بها حتى القرن الرابع الهجرى .

تلك هى أقدم علاقة بين ملوك العرب والصين ، فيما كتبه

مؤرخونا . . . وما وقعت حوادثه منذ أكثر من ستة عشر قرنًا من الزمان :

وفي القرن الأول من تاريخ الهجرة ، وعلى وجه التحديد سنة ٩٦ هـ ، أرسل الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي قائده المغوار قتيبة بن مسلم وإلى خراسان . . إلى الصين ، فلما أثخن فيها ، وأحس ملك الصين بقرب انهيار عرشه ، طلب الصلح ، فأوفد قتيبة إليه هبيرة بن مشمرج ، فجنح الفاتح العربي المسلم إلى السلم ، ولقى الإسلام والمسلمون منذ ذلك الوقت من ملوك الصين كل تكريم وتقدير .

وفي سنة ١٠٨ هـ أوفد هشام بن عبد الملك من قباه سليمان رسولا إلى إمبراطور الصين (هسوان تسونج) ، وفي سنة ١٣٩ هـ استنجد ابنه (سوتسونج) بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، ليسترد به سلطانه المسلوب من أيدي الثوار ، فكان له ما أراد ، واستقر المسلمون بعد النصر الذي أحرزوه ببلاد الصين ، وتزوجوا من بناتها وطابت لهم الإقامة بها .

وفي القرن الرابع الهجري ، توثقت الروابط بين العرب والصين عن طريق المصاهرة إذ أوفد الأمير المسلم نصر بن أحمد الساماني من قبله رسولا إلى فالين بن الشخير ملك الصين يخطب ابنته لابنه الأمير نوح ، فقبل أبوها وجهزها وأرسلها إلى خراسان ومعها مائتان من الخدم وثلاثمائة من الجواري والخصيان ، وتزوج

منها نوح<sup>(١)</sup> .

وفي مطلع القرن الخامس نشبت الحروب بين ( طغان ) ملك الترك ، وملك الصين ، كانت الدائرة فيها على ملك الصين . وفي القرن السابع تغلغل العنصر المغولي في الصين ، واعتنق ملوكهم<sup>(٢)</sup> دين الإسلام وجعلوا ( كاشغر ) عاصمة دولتهم الجديدة ، وأسلم منهم جنكيزخان وترماشين .

وقد أشير على ملك الصين المغولي ( بركة )<sup>(٣)</sup> بمهادنة الخليفة العباسي المستعصم ، ومن ثمة تبودلت الهدايا والرسائل بين أكبر قوتين إسلاميتين إحداهما دولة الصين وعاصمتها ( كاشغر ) ، والأخرى دولة بني العباس الهاشمية القرشية العربية وعاصمتها بغداد ، ثم صار ( القان أو الخان ) لقباً على ملوك الصين ، وصارت ( خان بالق ) التي هي ( بيكين ) قاعدة المملكة الصينية . و ( قراقوم ) قاعدة التتار .

ولما انتشر العنصر المغولي المسلم في الجهة الغربية ، والشمالية الغربية من البلاد . أخذ الصينيون الأصليون يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ولا سيما عندما أعلن الأمير يعقوب خان سنة ١٢٨٠ هـ استقلاله بمملكة ( كاشغر ) في الشمال الغربي ، التي عندها التقى بالصينيين ، فانتصر عليهم وكان جيشهم يتكون من أكثر من

( ١ ) معجم البلدان .

( ٢ ) تاريخ ابن خلدون .

( ٣ ) صبح الأعشى .

مائة ألف مقاتل ، وعلى أثر هذا النصر المبين ، زلزلت الصين زلزالها ، إذ أوشاك الأمير يعقوب خان أن يجعل الصين دولة إسلامية سنة ١٢٩٣ هـ (١) .

ولكنه كان في ذلك الوقت محصوراً بين دولتين ، كلتاها له عدو لدود هما : الصين وروسيا ، فاضطر إلى مهادنة هذه وعقد معها معاهدة تجارية ، ولما أراد دعم الوحدة الإسلامية ، بايع السلطان العثماني بالخلافة ، وانضوى تحت لوائه ، ليكون له عضداً وسنداً ، وطلب من دار الخلافة خبراء في الفنون الحربية وسائر الصناعات الهندسية ، وأعد الجيوش ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يشهد ثمار جهوده ، فانقسمت تركته بين أولاده واغتم ملوك الصين هذه الفرصة ، فانقضوا على دويلاتهم وعادت إلى الصين كما كانت من قبل .

ويجب أن نتذكر هنا تلك المكاتبات بين ملك الصين المغولي المسلم أحمد بن هولاكو وسلطان مصر التركي الناصر محمد بن قلاوون ، فقد كتب أحمد بن هولاكو مع قاضي القضاة قطب الدين والأتابك بهاء الدين ليقول لصاحب مصر إن المغول « من الله على بصيرة وإن الإسلام يجب ما قبله . . . » وقد أورد أبو الفرج الملقب نص هذه الرسالة (٢) .

هذا وقد كانت رحلة ابن بطوطة إلى الصين في عهد ( القان )

( ١ ) صفوة الاعتبار .

( ٢ ) مختصر الدول .



المسلم سلطان الصين الذى أكرمه وهياً له من أسباب الراحة ،  
 ما جعله يطوف بأرجاء البلاد ، وتحدث عن أمير أمراء الصين  
 وهو الأمير الكبير ( قرطاي ) ، وقد أقام له مأدبة بداره .  
 واستضافه ثلاثة أيام ، وكلف أولاده بمصاحبتة فى الزورق مع  
 أهل الموسيقى والطرب «وكانوا يغنون بالصينى والعربى والفارسى»<sup>(١)</sup>.

## الفصل الثالث

### ثقافة العرب في الصين

#### بداية التراث :

إذا نظرنا إلى الثقافة بالمعنى العام الذى يتعامل به علماء الأجناس البشرية ( الأنثروپولوجيا ) ، كان لزاماً علينا أن نتناول — فيما نحن بصددده — ما خلفه العرب منذ البداية في الصين من تراث اجتماعى يتضمن اللغة والدين والعادات والتقاليد والفنون والصنائع والآداب والعلوم ، ومظاهر الحياة اليومية من ملبس ومأكل ومشرب ، وحياة الفرد في أطواره مع المستويات الاجتماعية ، ونظام المعيشة ، والتفاعل بالجهاز الحكومى المحلى والمركزى ، ونتائج الهجرات في النسل والسحنة واللون والقامة . . إلى غير ذلك .

وسنحاول في هذه الصفحات القليلة أن نوجز الإجابة على هذه المطالب ، بما ينبى بالغرض ، على أساس أن المراجع العربية والصينية قديمها وحديثها ، لا تسعفنا بمادة خصبة منظمة ، كما هو المأمول ، قياساً على المعلومات المنهجية المعروفة في المؤلفات المعاصرة .

ومع ذلك سنكتفى هنا برسم الخطوط العريضة للثقافة بالمعنى

الضيق ، ونحاول التعرف على الآثار العربية في الصين منذ وطئت  
أقدامهم أرضها في الجاهلية والإسلام . . وبعبارة أخرى نقول :  
ماذا أعطى العرب الصين ؟ أما سؤالنا : ماذا أخذ العرب عن  
الصين ؟ . . فجوابه في مكان غير هذا من الكتاب .

وقد رأينا من قبل كيف انتقل العرب في الجاهلية إلى الصين  
للتجارة يحملونها إليها ومنها ، برًا وبحرًا . . وكان هذا الانتقال من  
مواطن بالجزيرة العربية عمرت بالحضار التي مركزها منطقة  
اليمن ، وقد اشتهرت منذ القدم بالسيوف والحرير بصفة خاصة .  
ومعنى ذلك أن المصنوعات والمنسوجات العربية وجدت طريقها  
من اليمن إلى الصين ليستبدل بها التجار طرفًا وتحفًا يكاد بريقها  
يخطف الأبصار ، وكذلك الحيل العربية الجياد التي كان  
اقتناؤها في الصين وقفًا على الأباطرة وأغني أغنياء الأعيان بها .  
أما التراث العربي فقد انتقل فعلا إلى الصين في النصف  
الأول من القرن الثامن الميلادي ، وهذا ما يؤكد مؤرخو الصين  
أنفسهم لهذه الفترة ، فيقولون إن العرب دخلوا الصين الوسطى  
بجماعات كالطوفان من مسافة تزيد على ألف فرسخ حاملة  
معها الكتب المقدسة التي خصص لها بهو في القصر الإمبراطوري  
حيث تعرض ترجمات صينية لها ولغيرها من كتب القانون ،  
ومن هنا كان بدء انطلاقها وذيوعها في مختلف ولايات الصين ، منذ  
حكم البلاد الإمبراطور (تاوتسونج) سنة ٦٥١ هـ ، وهو التاريخ الذي  
يحدده محمد توضع الصيني المسلم كبداية لدخول العلوم الإسلامية .

أما المراكز الرئيسية لنشر الثقافة العربية في الصين ، فكانت من غير شك بين جداران المساجد التي أخذت تتزايد حتى انتشرت في الولايات والمدن والقرى والأحياء . . . ويضاف إليها أيضاً « المعهد الإسلامي » الذي أنشئ في مدينة هوشه Hochow بولاية ( خانسو ) حيث كان يتلقى به الطلاب علوم الدين . . . ثم ينقلون إلى ولاياتهم ، فينشرون بها ما تلقوه على أيدي أساتذتهم ، وبدأوا — كما يقول ( برومهول Broomhall ) نشاطهم في أكثر من حواضر عشر ولايات ، أعدوا فيها أذهان الناس لتقبل مبادئ دين العرب .

والى جانب مراكز الإشعاع الإسلامي في الصين ، يجب أن نذكر ( لانشوما ) وهي أول مدرسة إسلامية في الصين ، وهي نسبة إلى منشئها ( لانشوما ) المسلم الفقير الذي عاش في ( لانشو ) عاصمة ( خانسو ) ، ولم يكن يملك من حطام الدنيا غير طاحون صغير ، فكان يعمل به هو وتلاميذه نصف النهار لكسب القوت ، ثم ينصرف في المساء إلى الدرس في ( لانشوما ) وبهذا أمكنهم التفقه في أمور دينهم ، ووفر عليهم مشقة السفر إلى ( بخارى ) و ( سمرقند ) .

الصين . . . والمعارف :

في « طبقات الأمم » الذي وضعه صاعد الأندلسي ( ٦٢٢هـ ) جاء ترتيب الصين منها في الطبقة السابعة أو الأخيرة ، من

حيث العناية بالعلوم ، وقال منوهاً بنصيبهم المتميز في المعرفة « ... وحظهم من المعرفة — التي بزوا فيها سائر الأمم — إتقان الصنائع العملية ، وإحكام المهن التصويرية ، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع » .

بهذا قصر صاعد براعة أهل الصين على الفنون والصنائع ، وعلى ذلك فهم أحوج إلى الثقافة العربية من علوم نظرية تطبيقية كالحساب والفلك ، ليخرجوا عن طريقها من عالم الأشباح والأساطير والخرافات ، إلى عالم الحقائق والوقائع ، مما لم تستوعبه الكونفوشيوسية التي يدينون بها ، والتي أصبحت مهددة بخطر داهم ، من جراء انتشار دين العرب في الصين .

وكان من الضروري والمعتول معاً أن يؤكد الإسلام — أولاً وبأدى ذي بدء — وجوده ، ويحدد معالمه في الصين كنظام للعبادات والمعاملات ، حتى إذا تمكنت العقيدة من قلب الفرد ، انطلق في حماسة لتطبيقها على نفسه كجزء من المجتمع ، والتصرف وفق تعاليمها ، وفي نطاق أبعادها ، وحدودها المرسومة . ومن هنا كان دين العرب أول تراث لهم من ثقافتهم يأخذ طريقه إلى الصين ، عن طريق اللغة التي نزل بها القرآن ، والتي هي أولى ركائز حضارتهم وعمود قوميتهم ، وسبيل علاقاتهم بغيرهم من الأمم ، وكان من الطبيعي أن تنتشر بعض الألفاظ العربية ، وتحتل مكانها من لغة الصين حسبما قرره ابن خلدون

من أن المغلوب يقلد حتماً لغة الغالب ، وإن كان العرب في هذه الحالة غير غالبين بحق السيف ، ولكنهم مع ذلك غالبون بحق العقيدة وتوالى الهجرة وازدياد النفوذ ، ومرور الأجيال ، مع الاستقرار .

### انتصار اللغة العربية :

وأكثر الألفاظ العربية ذيوعةً في لغة الصين تشير إلى الأخلاقيات ، بما يدل دلالة واضحة على تعطش الصينيين الكونفوشيوسيين إلى مزيد من الثقافة الأخلاقية ، فكان لهم من لغة الإسلام ما يروى ظمأهم ويشفي غلتهم ، فهذه الألفاظ : قربان . إيمان . حق . باطل . كذب . روح . صبر . صدقت . حقيقت . زكات . حج . عالم . جاهل . وعظ . رزق . شفاعت ..<sup>(١)</sup> كلها مما دخل في لغة الصين بكثرة ، وتناقلته الألسنة . وكان لا بد من وجود ترجمة ينقلون إلى الصينية تفاصيل الدين الإسلامي ، وبطبيعة الحال كان لا بد أن يكون هؤلاء الترجمة من بين العرب أنفسهم الذين مارسوا التجارة بين الأمتين ، واكتسبوا خبرة باللغتين من طول ترددهم على الصين ولا سيما المخضرمين منهم الذين عاشوا في الفترة ما بين الجاهلية والإسلام ، وأسلموا .

( ١ ) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين .



ونتج عن ذلك حتما بدء حركة الترجمة إلى الصينية ؛ ترجمة القرآن والسنة والأحكام الدينية والسيرة النبوية ، وما يتبع ذلك من علوم الدين والدنيا ، كما ترجمت العلوم الكونية من العربية وعلى رأسها الفلك العربى ... بناء على أمر الإمبراطور ، وذلك سنة ٥٧٨٦ = سنة ١٣٨٤م ، ونهض بهذا العمل علماء الإسلام وحكماء كوتفوشيوس معاً ، وعلى أثر ذلك جعلت حكومة الصين التقويم العربى نافذاً فى جميع أرجاء البلاد بصفة رسمية .

وتوالت بعد ذلك الدراسات والترجمات من اللغة العربية إلى لغة الصين بأقلام صينية إما أصيلة وإما مستعربة . . تناولت البحوث الكلامية والتصوفية والأخلاقية والفيزيائية ، فظهرت ترجمة صينية لكتاب « الغرض من الرجوع إلى الحق » فى علم التوحيد ، و « الفصول الأربعة فى علم العبادات بالأدلة العقلية » فى مطلع النصف الأخير من القرن الحادى عشر الهجرى ، ووضع العالم الصينى « ماشى بابا » كتاب « درة الناصحين » فى التصوف .

وشهدت المجالس علماء الإسلام فى مناظرات مع علماء البوذية ، تدور حول التصوف والطبيعة ، وكان الأباطرة يسمحون لهم بالتفرغ للبحث والدراسة ، وإعفائهم من التجنيد ، وأعدوا لهم مساكن خاصة فى ( نانكين ) ، وعرف منهم : ( تاى يو آخوند ) مؤلف كتاب « الدراسة الكبيرة فى الإسلام » .

واشتهرت في الأوساط الإسلامية بالصين كتب عربية ذات قيمة منها « هداية المسلمين » في التوحيد ، و « حقيقا الإسلام » في التصوف ، ومنذ أربعمئة سنة ، والدراسات الإسلامية في الصين تزداد وتنوع ، بعضها بالعربية وبعضها بالصينية ، وبعضها مترجم عن الفارسية إلى العربية أو بالعكس ، من ذلك : كتاب « المبادئ للمسلمين » كتب ( تاي يو ) سنة ١٠٨٣ هـ في الفقه ، وظهر أيضاً قاموس عربي صيني كتبه بحروف عربية ( جان تسي موي ) وعنوانه « جوهر » . وفي سنة ١٠٩٠ هـ وضع ( شاي يوشان ) كتابه « موقظ الضالين » .

ومن أشهر المؤلفين في عهد الملك ( يان تسونغ ) العالم الصيني ( ماجو ) الذي ينحدر من سلالة شمس الدين عمر الشريف العربي ، فقد ظهر له كتاب « الإبرة المغناطيسية في الإسلام » سنة ١٠٧٦ هـ ، وقد حباه الملك بالتكريم ، وأغدق عليه من عطفه . . لقاء ما كان يلقيه بين يديه من مسائل عسكرية عن الإسلام .

وفي سنة ١١٠٣ هـ ظهر كتاب « نبذة عن العبادات » وهو أحد مؤلفات العلامة ( حي وان كي ) شرحه بالأدلة الكونفوشيوسية مما يدل على رسوخ قدمه وتضلعه في العلوم الإسلامية والفلسفة الكونفوشيوسية .

ومنذ نحو مائتين وخمسين سنة غادرا العلامة الصيني المسلم --

( صالح ليوجى ) مدينة ( نانكين ) فى سبيل الحصول على مراجع إسلامية ، دعاه من أجلها العالم ( ما ) ، وعلم وهو فى الطريق بوجود كتب عربية كثيرة فى حوزة أسرة ( سيو ) مودعة فى قوية ( جوسيان ) ، فعر منها على كتاب بالفارسية عن السيرة النبوية يقتنيه بعض الأفراد ، فما لبث أن ترجمه إلى لغة بلاده ، ثم نقل إلى الإنجليزية بعنوان « النبي العربى » . هذا فضلا عن مؤلفات صالح ليوجى الذائعة الصيت فى القرن الثانى عشر الهجرى ومنها « آداب الإسلام » و « الطبيعة فى الإسلام » و « سيرة المصطفى » وهو الكتاب الذى غادر من أجله نانكين إلى ( شان تونغ ) فى شتاء سنة ١١٣٣ هـ . وقدم له سايو الذى ينتمى أصلا إلى سلالة هاشمية .

وفى القرن الماضى وضع العلامة ( نور الحق ماجى بون ) كتبًا بالعربية والفارسية والصينية فى النحو والصرف والفلك والبيان والمنطق ، والتوحيد والتصوف والكيمياء .

وفى مطلع القرن العشرين ظهرت تفاسير صينية للقرآن ، والحديث ، ودراسات مقارنة بين الإسلام والمسيحية والكونفوشيوسية والبوذية ، وأشرف بعضهم على مجلات دورية تصدر بالعربية ، ونقل بعضهم « العقائد النسفية » فى علم الكلام للنسفى إلى الصينية ، وظهر كتاب « الزواج بين الصينية والعربية » كما ظهرت سنة ١٩٣٢ ترجمة للقرآن ، والقاموس العصرى ، كما أن « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده قد ظهرت لها ترجمة صينية وتعليقات

ضافية يقلم عثمان عفيف الدين ماشوى تو آخوند . وظهرت ترجمات صينية لمؤلفات طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وفريد وجدى وعبد المعتال الصعيدى ورشيد رضا ومحمد عبده ، ومحمد غلاب .

وهكذا وقف أهل الصين طيلة أربعة عشر قرنًا من الزمان على التراث العربى قديمه وحديثه وفى مختلف ميادينيه ، وكان للبعوث الصينية إلى الأزهر الشريف بالقاهرة أكبر الأثر فى دعم روابط الأخوة بين هاتين الأمتين ، عن طريق الثقافة العربية لغة ودينًا وعلمًا وأدبًا . وفى سنة ١٩٣١ عين أول شيخ لرواق الصينيين بالأزهر وهو محمد إبراهيم شاه كوجين .

ولسنا ننسى هنا فى العالم العربى ما كتبه محمد تواضع بعنوان « الصين والإسلام » ، وبدر الدين حى بعنوان « العلاقات بين العرب والصين » وكلاهما بالعربية الفصحى ، ويفصحان عن عمق التفكير وتقصى الحقائق والمعلومات استناداً إلى أوثق المصادر العربية والصينية مع مقارنتها بما كتبه الألمان والطلليان والإنجليز والفرنسيون والأتراك والفرس وغيرهم . ويكفى أن نشير إلى أن الكتاب الأخير المنشور بالقاهرة سنة ١٩٥٠ قد ديجّه قلم المؤلف الذى تخرج فى الجامعة الإسلامية بدلهى والجامعة الأزهرية بالقاهرة ، وهذا أكبر مظهر على التبادل الثقافى بين الصين ، والقاهرة قلب العروبة النابض .

وإلى جانب التراث الدينى انتشر فى الأوساط الثقافية

بالصين كثير من المؤلفات في الطب العربي سنة ١٢١٥م عندما غزا قبلاى خان ملك المغول بلاد الصين ، وكان لأهل الصين اهتمام خاص بعلم الفلك ، واشتهرت به مدرسة سمرقند التى طالما اقترنت بمدرستى الفلك فى بغداد والقاهرة ، واشتهرت أيضاً رسالة ابن يونس فى الفلك عندما ترجمها ونشرها فى الصين العالم الصينى فى الفلك ( كوشوكنغ ) سنة ١٢٨٠م .

### الأوروبيون فى حيرة :

وإذا كانت الدراسات الإسلامية قد انتقلت إلى الصين من البلاد الإسلامية المجاورة من الأتراك والفرس والمغول ، فإن انتقالها إليها من منابعها العربية الأصيلة كان أسرع وأبلغ نفاذاً ، لأن النقل عن العربية مباشرة أيسر من النقل عن أى لغة أخرى كالتركية أو الفارسية أو الهندية ، خصوصاً وأن دول الإسلام تلك كانت هى الأخرى أشد ظمأ من الصين إلى ينابيع التراث العربى الأصيل .

وعندما تكلم ( جوستاف لوبون ) فى كتابه « حضارة العرب » قال : إن العرب قد نقلوا الكثير من ثقافتهم العلمية إلى الصين ، مما حدا بالأوروبيين إلى الظن بأنها ثقافة ترجع إلى أصل هندوسى أو صينى .

وكانت غارة المغول على الصين سنة ١٢١٥ ميلادية نقطة هامة فى تاريخ الثقافة العربية ، فعلى أثرها تعزز مركز العلوم

العربية في الصين ، واتسع نطاقها ، سواء من حيث النقل أو الاقتباس أو الترجمة .

كما أن علماء الصين بعد أن استوعبوا الكثير من ألوان التراث العربي ، صاروا يقدمونه إلى الهنود في آنية صينية ، وأصبح الباحثون في تراث الصين كثيراً ما يخلطون — عن جهل — بين ما هو صيني أصيل ، وما هو عربي منقول .

وعلى كل حال . كانت ( بيكين ) أو ( كاشغر ) العاصمة القديمة للثقافة العربية أشبه بخلية النحل من كثرة سكانها الذين كانوا يبلغون يوماً ما نحو مليونين وربع مليون نسمة منهم ١٧٠ ألف مسلم ، وكان مسجد ( نيو- كي ) الذي أنشأه بها ناصر الدين سنة ٩٩٧م غاصاً على الدوام بحلقات الدراسة . ويوجد في ( بيكين ) هذه اتحاد للأدباء في الوقت الحاضر ،

وقد وجه الدعوة لأحد الأدباء المصريين وهو الأستاذ محمود البدوي لإلقاء محاضرة عن ( الأدب المصري والكتاب المصريين الذين حملوا الشعلة الوطنية حتى قامت الثورة الكبرى بقيادة جمال عبد الناصر ) ، وكان في هذا الاتجاه من الصين نحو مصر منذ قامت الثورة بداية طيبة لبدء صفحة جديدة من العلاقات الوثيقة بين الدولتين ، على أساس حكيم من ثقافتنا البصيرة ، وسياستنا الرشيدة القائمة على التعايش السلمي ، تماماً كما فعل العرب الأولون عندما استوطنوا الصين منذ أربعة عشر قرناً أو أكثر .



## العرب . . يكتبون عن الصين :

إن من دواعي الفخر حقاً . . أن يكون العرب أسبق الأمم كتابة عن الصين . . وأغزرها مادة ، وأدقها وصفاً ، وأعمقها إدراكاً ، وأبعدها نظراً ، وأصدقها رواية وشهادة ، فلا عجب إذا كانت «العربية» أول مصدر للمعرفة الحقيقية عن هذه البلاد السحيقة . . المفعمة بالأساطير ، المليئة بالعجائب والغرائب .

لقد بدأ العرب يكتبون عن الصين منذ وطئت أقدامهم أرضها . . ولكن لم نستطع الوقوف على ما كتبوه عنها إلا على يد تاجر عربي من البصرة ، رحل إلى الصين فكتب معلوماته في العام التالي لرحلته أي سنة ٥٢٣٧ هـ = ٨٥١ م . . ومع ذلك كان هذا التاجر واسمه سليمان البصري . . أول من كتب عن الصين — على ما نعلم — حتى الآن ، فلا عجب إذا استحق منا كل تقدير وإعجاب ، إذ أصبح رائداً لجميع المؤلفين الذين جاءوا بعده ، وأغابيتهم العظمى أيضاً من العرب .

ولا تنحصر أهمية السبق العربي في الكتابة عن الصين فقط ، وإنما تتسع هذه الميزة أيضاً حتى تجعل من الثقافة العربية سجلاً وافياً ، يمكن أن يستقى منه كل دارس — في أي ميدان من ميادين المعرفة — عناصر قوية للكشف عن نواحي التطور الاجتماعي لأي جزئية دقيقة من جزئيات العلوم والفنون والآداب .

ولقد مضى حين من الدهر ، اختفت فيه المصادر العربية من خزائنها فإذا بها تظهر من جديد في أوروبا وأمريكا منشورة بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية ، وعليها تعليقات وشروح لعدد كبير من المستشرقين فأصابوا أو أخطأوا . . ولكن تبين أن تراثنا هذا كان بمثابة القاعدة الرصينة التي أقيمت عليها دعائم البحوث الأنثروبولوجية الحديثة .

## الفصل الرابع

### الصين بين يديك

أبو الصين :

زعموا - ولا ندري من هم الذين زعموا - أن الأرض عندما مات نوح عليه السلام ، توزعت بين أولاده ، فاختص بنو يافث بن نوح بالشرق ، فصنع عابور بن سويد بن يافث سفينة كما فعل جده من قبل ، وحمل عليها أولاده ، فأقلعت بهم عبر البحر الشرقي بمحاذاة الساحل إلى نهايته ، حتى نزل أرضاً شاسعة ، سرعان ما عمروها ، فأنشأوا المدن ، وشيدوا العماثر ، واستخرجوا المعادن ، وشقوا الأنهار ، وغرسوا الأشجار . فلما مات عابور خلفه ابنه صابور وهو أبو الصين <sup>(١)</sup> . فيكون هو أصل الصينيين الذين هم ذرية عابور ، منذ عبر بهم نهر بلخ واستوطنوا جميعاً هذه البقعة الشاسعة من الأرض ، وجعلوا عاصمتهم الأولى ( أنمو <sup>(١)</sup> ) <sup>(٢)</sup> .

ويقال إن أول ملوك الصين هو ( صاين ) بن باعور أو عابور صانع السفينة ، وبه سميت ( الصين ) حيث استمر حكمه

( ١ ) نخبة الدهر .

( ٢ ) مروج الذهب .

بها ثلاثة قرون <sup>(١)</sup> وكان ( حرامان ) أحد أبناء ( صاين ) ، وفي عهده صنع أهل الصين السفن ، وحملوا فيها الرجال ، وأوفدوهم بالهدايا إلى الهند والسند وبابل ، فقدموها إلى ملوك هذه البلاد ، وعادوا منها أيضاً بما فيها من طرائف ، ليقف ملك الصين على ما عند غيره من الممالك ، ورغب جيرانه الملوك في زيارة الصين ، وإغرائهم بالجوهر والعطور والآلات التي حملوها إليهم . بهذا لفتت الصين أنظار الأمم ، فأسرعوا ببناء السفن ، التي حملت وفودهم إليها . ومن ثمة بدأت الصين علاقاتها السلمية والتجارية بغيرها <sup>(٢)</sup> .

### الصين . . عربية !!

حاول الكاتب العربي ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري .. أن يبحث عن أصل تسمية «الصين» <sup>(٣)</sup> ، فعرض لآراء القدماء كابن الكلبي الذي روى عن الشرفي أن الصين كانت تسمى أيضاً ( غرا بنا ) نسبة إلى ( غير ) بن كعاد بن يافث بن نوح . . ومنه المثل العربي ؛ ما يدرى شجر من بغير . . ومنهم أبو القاسم الزجاجي الذي يرد أصل التسمية إلى ( صين ) بن بغير بن

( ١ ) تاريخ اليعقوبي .

( ٢ ) مروج الذهب .

( ٣ ) معجم البلدان .

كما د) أول من نزل بها وتدَّيرها .  
ثم يذكر بلداناً أخرى كل منها تسمى ( الصين ) ولكنها  
غير ( الصين ) وهى :

- ١ - الصين : موضع بالكوفة
  - ٢ - الصين : موضع قريب من الإسكندرية
  - ٣ - الصينية : بليدة مشهورة تحت ( واسط ) بالعراق .
  - ٤ - صينية الحوانيت : اسم آخر لهذه البليدة الأخيرة .
- وإذا نسب إليها قيل ( صيني ) ، فهذا سعد الخير الأندلسي  
الصيني ( - ٥٤١ هـ ) وقد سافر من الأندلس إلى الصين ،  
وكان يكتب الصينية فعرف بالصيني . . وهذا الحسن بن أحمد  
ابن ماهان الصيني ، وينسب إلى صينية واسط . . وإبراهيم بن  
إسماعيل الصيني من الكوفة وذهب في تجارة إلى الصين فعرف  
بالصيني . . وعبد الرحمن الصيني التاجر المغربي<sup>(١)</sup> - الذى  
ذكره أبو حامد الغرناطى - وكان ممن زار الصين وتحدث  
بعجائبها .

### أبواب الصين :

يقول ابن الوردي نقلاً عن الهردى أن للصين اثني عشر  
باباً<sup>(٢)</sup> ، وهى صخور عتيقة فى البحر ، بين كل باب وآخر

( ١ ) تحفة الألياب .

( ٢ ) خريدة العجائب .

مسلك يؤدي إلى موضع بعيد عن بلاد الصين ، كالمياهات ، فإذا ضلت السفن طريقها وانحدرت في هذه الشعاب البحرية أو المياهات ارتمت في تيارات بجارفة من المياه الملحة والعذبة ، حتى تبعد عن الموانئ التي تقصد الرسو عليها من سواحل الصين.

### عجائب بحر الصين :

شغلت هذه العجائب أذهان العرب الرحالة ، فأخذوا يحكونها لمعاصريهم ، وبطبيعة الحال أضافوا إليها من أخيلتهم حواشي جعلتها تشوق سامعيها وتحفز بعضهم إلى ارتياد هذه البلاد .

منها ما حكاه البكري ( - ٥٣٦٣ ) في كتاب « الممالك والمسالك » بمناسبة الحديث عن دابة في البحر توجد في البحر الحبشي تسمى « الأوال » . حيث الجزيرة التي لعلها سميت ( أوال ) لهذا السبب ، والسماك هناك يسمى « الأوالى » طول الواحدة منها أربعمئة ذراع إلى خمسمئة « وربما هداً البحر فيظهر طرف من جناحه كالشرع العظيم وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من غلوة سهم ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فيه ، وقد فغرفاه فتتهوى إلى جوفه جرياً ، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى ( الإنك ) فتلصق بأسفل أذننها أو أذنبيها فلا يكون لها منها خلاص حتى تضرب برأسها وتموت فتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم .

ويتحدث البكري أيضاً عن ( العنبر ) الذى يقتله حوت ( الأوال ) فيطفو فيصيده الزنوج .

ومنها ما حكاه القزوينى فى القرن السابع الهجرى ، وضمنه كتابه « عجائب المخلوقات » فتحدث عن ركوبه بحر الصين مع التجار ، فهبت عليهم ريح عاتية حولت المركب عن طريقه وكان الربان أعمى ، ومع ذلك كان حاذقاً ، واستطاع بخبرته أن ينجو بالمركب والركاب من دوامة بحرية كادت تودى بحياتهم .

ومنها ما حكاه ابن الوردى فى القرن الثامن الهجرى وضمنه كتابه « خريدة العجائب » فروى عن عبد الرحمن المغربى الذى ركب بحر الصين ، فألقته الرياح على جزيرة واسعة رأوا فيها قبة بيضاء تلمع وتبرق ويبلغ ارتفاعها أكثر من مائة ذراع ، وكأنها الجبل الراسخ ، فأخذوا يضربونها بالفتوس والصخور والأخشاب وإذا بها « بيضة الرخ » وقد انشقت عن فرخ الرخ ، وتعلقوا بريشة من جناحه وظلوا يجذبونها حتى قلعوها وقتلوه ، وطبخوا بعض لحمه ، فاسودت لحاهم بعد البياض ، ولم يعد للشيب أثر على وجوههم ، وفى وضح الشمس حوم فوق سفينتهم طائر الرخ العظيم ، فألقى حجراً ضخماً فى البحر كان له دوى عظيم ، لو سقط فوقهم لأهلكهم أجمعين .

وتحدث ابن الوردى أيضاً عن « جزيرة الحكماء » التى وصل إليها الإسكندر ذو القرنين ، ووصف بخياله المجنح



سكانها وما جرى بينهم وبين الإسكندر من حوار شائق ينتهى إلى مغزى أخلاقى مفاده أن الموت يسوى بين الأمير والفقير ، كما يحكى لنا أيضاً عن « التين » الكائن المائى الضخم الذى احتل مكانه من التصاوير الصينية والأساطير العربية .

ويصور لنا ابن بطوطة فى رحلته ما شاهدته بنفسه فى بحر الصين عندما حملتهم الرياح نحو جبل يبعد عنهم بعشرين ميلاً ، ولا عهد للبحارة بجبل فى هذا المكان من البحر ، فأوشكوا على الهلاك ، لولا أن رأوا هذا الجبل يرتفع فى الهواء وإذا به طائر الرخ الذى كانوا يتخيلونه جبلاً ، فقد ذكر الجاحظ أن طول جناحه عشرة آلاف باع ، وشهرته فى بحر الصين تعدل شهرة التمساح فى نيل مصر .

### مراكب الصين :

رأينا كيف صنع « أبو الصين » السفن — كما فعل جده الأكبر « نوح » من قبل — وحمل ذريته عليها حتى وصل بهم إلى أرض الصين التى سميت باسمه ، وعمرها هو وأولاده ، ولما استقروا بها بعثوا إلى الممالك المجاورة بالهدايا ، فتشجع الملوك على صنع السفن ، وأوفدوا بعوثهم بالهدايا ، ومن هنا كانت نشأة العلاقات البحرية بين الصين وسائر الأمم .

وقد وصف لنا ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى السفن الصينية التى شاهدها وصفاً دقيقاً ، إن دل على شيء ،

فإنما يدل على تقدم الصين في صناعة السفن ، ويؤكد ما رواه العرب القدامى عن تاريخ البحرية الصينية .

ذكر ابن بطوطة أن سفن الصين ثلاثة أصناف : الكبير يسمى ( جنك ) وجمعه ( جنوك ) والمتوسط منها يسمى ( زو ) والصغير يسمى ( ككم ) ، ويكون في المركب الكبير ما بين ثلاثة قلوغ إلى عشرين ، ويصنع القلع من الخيزران الرفيع منسوجاً كالخصر ، ويظل على الدوام منصوباً يدور مع الريح حيث دارت . ويحتوى كل مركب على ستمائة بحار وأربعمائة مقاتل من كل نوع حتى رماة النفط ، ويتبع كل مركب ثلاثة هي : النصفي والثلاثي والربعي ، واشتهرت « الزيتون » بصناعة السفن ، وهي إحدى موانئ الصين .

وقد أسهب ابن بطوطة في تفاصيل هذه الصناعة والحشب والمسامير الضخمة التى تصنع منها ، وعدد المجاذيف التى على جوانب السفينة وعدد المجذفين ، وما تحتويه من الغرف ، والخضراوات والبقول والزنجبيل الذى يزرعونه فى أحواض من الحشب على ظهر المركب ، ويتحدث أيضاً عن أهمية القبطان وطريقة تقديم التحية العسكرية له إذا نزل إلى البر ، والمرابطة على بابه طول مدة إقامته حتى يعود إلى استئناف رحلته . « ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه إلى البلاد » كما يقول ابن بطوطة .

وكان لابد من اهتمام علماء « المسالك والممالك » من العرب

بذكر الطرق البحرية بين بلادهم وبين الصين ، فرى ابن خرداذبة فى القرن الرابع الهجرى يصف لنا مسالك السفن من مصب نهر دجلة عند ( الأبله ) إلى الهند والصين ، ويذكر أن السفن العربية كانت تحاذى الساحل العربى وساحل الهند حتى ملبار ، كما يحدد طول البحر من القلزم إلى بلاد ( الواق واق ) أى اليابان بأربعة آلاف وخمسمائة فرسخ .

### سور الصين العظيم :

وهو من عجائب الصين ، التى غنى بها المؤرخون ، ولكن أكثرهم قد خلط بينه وبين سد ياجوج وماجوج . أما سور الصين فيبتدىء من الشطوط الشرقية ، ويمتد فى الصين حتى درجة عرض ٤٠ شمالاً ، ودرجة طول ٢٩ شرقاً ، ويبلغ امتداده نحو ١٢٥٠ ميلاً ، وسمكه من أسفل نحو ٢٥ قدماً ، ومن أعلى نحو ١٥ قدماً ، وارتفاعه يتراوح بين ١٥ قدماً و ٢٠ قدماً . وتوجد عدة حصون فى عدة أماكن على امتداده يبلغ ارتفاع بعضها ٤٠ قدماً . وهو مبنى من الحجارة والآجر والقرميد والطين<sup>(١)</sup> . وقد أقامه أحد ملوك الصين وهو ( لينج تسونج ) من أسرة ( تسين ) قبل ميلاد المسيح بنحو ٢٢٠ سنة ، لصدد هجمات المغول والقبائل انشالية عن المملكة الصينية الأصلية ، على أن ذلك لم يأت بالفائدة ، لأنهم فعلاً اقتحموا هذا السد المنيع ،

( ١ ) صفوة الاعتبار .

واجتاحوا البلاد وأثخنوا فيها .

وهذا السور لم يعد كما كان من قبل ، فقد أصابه الخراب من عدة جهات ، وتهدم بسبب الغارات المتلاحقة على الصين في مختلف العصور ، فتصدى لها ( شى خوانغ تى ) بقواته . . . في إحدى هذه المرات .

وإذا كان الأوربيون ينكرون ( سد ياجوج ومأجوج ) الذى أقامه ذو القرنين ، فإن العرب قد كتبوا كثيراً وكثيراً جداً عن هذا السد أو الردم ، كمفسرين للآيات الواردة عنه في القرآن والسنة والخبر ، أو كمؤرخين ، أو كمكتشفين ذهبوا بأنفسهم إلى موضعه من الصين ، للاعتبار والذكرى ، وكما كان الخلط عندهم ظاهراً بين الإسكندر الأكبر المقدوني وبين ذى القرنين . كان كذلك الخلط بين سور الصين ، وسد ياجوج ومأجوج ، وكلاهما إحدى عجائب الدنيا . . . ولكل منهما تاريخ .

### ياحوج ومأجوج :

من النادر أن نجد من بين مؤلفي العرب واحداً يفرق بين ( ذى القرنين ) و ( الإسكندر الأكبر ) فهما عندهم — بما يشبه الإجماع — شخص واحد ، هو الذى فتح المشرق والمغرب ، وانتهى من فتوحاته إلى ما لا وراءه نبات أو حيوان أو إنسان . . . وارتبط اسمه بالصين . . . ويأجوج ومأجوج . . . والسد العظيم . . . مما ورد في التوراة والإنجيل والقرآن فيما بعد . . . فكيف يكون ( ذو القرنين ) الذى عني به العرب هو الإسكندر المقدوني فاتح

المشرق ؟ وهل كان الإسكندر نبياً أو رسولاً حتى ينزل عليه  
وحي من السماء ؟ « قلنا يا ذا القرنين . . » ؟ !

ومن الطبيعي أن يحاول المفسرون البحث عن « يأجوج  
ومأجوج » . . من هم ؟ ما صفاتهم ؟ أين وجدوا ؟ ماذا فعل  
بهم ذو القرنين ؟ ثم ما هو ذلك الردم أو السد الذي حجزهم  
خلفه ؟ ولماذا ؟ وماذا وراء قصتهم الواردة في القرآن من مغزى ؟  
ومؤرخو العرب لم يغفلوا هذا كله أو بعضه فيما كتبوا . .  
وكذلك علماء الدين واللغة . . مع تفاوت عجيب بين كتاباتهم  
عن الموضوع . . ومع كثرة تلفت النظر حقاً . .

وبتجريد القصة من تهاويلها ، نخرج منها بأن يأجوج  
ومأجوج قبائل همجية من ذرية يافث ، يسكنون بين جبليين ،  
والمسالك إليهم وعرة ، وتمتد رقعة أرضهم إلى أقصى الشمال حتى  
بحر الظلمات . . معيشتهم فوضى وفساد وعيث بالأمن ، وطالما  
ضج منهم بالشكوى سكان الصحارى المتاخمة للصين من الغرب  
حيث يبدأ الإقليم السابع من أقصى الشمال مما يلي الإقليمين  
الخامس والسادس . . لا حصر لهم . . لا دين لهم . . لا نظام  
لهم . . عمالقة وأقزام . . جيرانهم وأبناء عمومتهم الترك . .  
استصرخوا ذا القرنين . . وقد مكن الله له في الأرض وقالوا  
إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، فاجعل بيننا وبينهم  
سداً . . على أن يجعلوا له أجراً . . ولكن ذا القرنين استعان بالترك . .  
فجمعوا الرجال وأحضروا الحديد والنحاس . . وبني عليهم

ردمًا حال بينهم وبين الفساد في الأرض .. فأمنوا شرورهم ..  
 إلى يوم القيامة .. يوم يقوم الناس لرب العالمين ..  
 وبلغ هذا الردم من المتانة حدًّا لا يتصوره العقل ، لأنه من  
 الحديد المنصهر في النار ، والمثبت بالنيحاس المذاب .. ويرتفع  
 إلى مستوى الجبلين الواقعين بين أرمينية وأذربيجان .. ممتدًّا إلى  
 مائة فرسخ طولاً ، وخمسين ذراعاً عرضاً ، ومائتي ذراعاً ارتفاعاً  
 فما استطاعوا أن يصعدوا إليه أو أن ينقبوه .. وما استطاعوا بعده  
 أن يهلكوا الحرث والنسل كما كان شأنهم من قبل .. وتركهم  
 ذو القرنين يومئذ يمجج بعضهم في بعض ..

وفي ذات ليلة رأى الخليفة العباسي الواثق بالله ( ٢٢٧ -  
 ٢٣٢ هـ ) في منامه أن سد يأجوج ومأجوج قد انفتح ،  
 فأزعجته الرؤيا .. وظن أنها القيامة .. فأصدر أمره إلى  
 ترجمانه سلام بالسفر إلى السد ليأتيه بالخبر اليقين .. وأجزل  
 له في العطاء والنفقة ..

وخرج سلام من ( سامراء ) .. ثم عاد بعد أن عاين  
 أمره .. وقص على الخليفة ما رآه ، وحضر الوزير ابن خرداذبة  
 حكايته للخليفة ، وسجلها في « المسالك والممالك » .

شهد سلام المدن التي خربتها يأجوج ومأجوج ، والحصون القريبة  
 من الجبل الذي أقيم الردم في أحد شعابه .. ورأى أقواماً  
 مسلمين يتكلمون العربية والفارسية ، ولم مساجدهم ومدارسهم ،  
 ولكنهم في عزلة تامة عن العالم ، حتى وصل إلى جبل منقطع

في هضبة ملساء، بها جبل عريض، وبه سد يأجوج ومأجوج..  
لا نقب فيه ولا كسر.. وجاء بمقاساته للخليفة بكل دقة..  
ومعه قطع من الحديد الذي تخلف من بناء السد العظيم..

وقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم، في سورتي  
«الكهف» و«المؤمنون»، ردًّا على سؤال اليهود للنبي عليه  
السلام عن «ذي القرنين» الذي سلك إلى المشرق «حتى إذا  
بلغ بين السدين وجد من دونهما قومًا لا يكادون يفقهون قولًا،  
قالوا: يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض،  
فهل نجعل لك خرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً». قال:  
ما مكنتني فيه ربي خير، فأعينوني بقوة، أجعل بينكم وبينهم  
ردمًا: آتوني زُبَرَ الحديد (قطع الحديد)، حتى إذا ساوى بين  
الصدفين (الجبلين) قال انفخوا، حتى إذا جعله نارًا، قال  
آتوني أفرغ عليه قطرًا (نحاسًا)، فما استطاعوا أن يظهروه  
(يصعدوا إليه)، وما استطاعوا له نقبًا، قال هذا رحمة من ربي  
فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقًا، وتركنا  
بعضهم يومئذ يموج في بعض، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعًا  
وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضًا، الذين كانت أعينهم في  
غطاء عن ذكرى، وكانوا لا يستطيعون سمعًا... «حتى إذا  
فتحت يأجوج ومأجوج (أي السد المقام في وجههم لحجزهم)  
وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق، فإذا هي  
شاخصة أبصار الذين كفروا...».



ولعل في هذا الموجز عن قصة سد يأجوج ومأجوج ما يصلح لأن يكون محاولة للإجابة على السؤال الذي أثارناه من قبل وهو : لماذا أراد العرب أن يعرفوا الصين ؟ . . . وما قد عرفنا كيف كانت هذه القبائل المجاورة للصين موضع اهتمام العرب لفهم ما ورد عنهم في القرآن الكريم . . .

### العمران بالصين :

إذا تركنا جانباً ما نقله العرب عن تعمير أولاد نوح لبلاد الصين أول ما نزلوا بها ، وإقامتهم المدن ، وشقهم الأنهار فيها والتمسنا مظاهر هذا العمران عند أقدم عربي زار الصين وسجل مشاهداته بها ، نرى حديثاً ضافياً للرحالة سليمان السيرافي الذي زار هذه البلاد في القرن الثالث الهجري ، وذكر لنا نواحي متعددة للحياة الاجتماعية فيها ، منها النشاط التجاري في ميناء ( خانفو ) ، وتولية رجل مسلم منصب الحكم في الصين من قبل الملك ، وشيوع لبس الحرير في الصين صيفاً وشتاء . وإن اختلف نوعاً عند الملوك والعامّة ، والأرز كطعام العامّة ، والحنطة ( القمح ) كخبز للملوك ، ووفرة التفاح والخوخ والرمان والسفرجل في البلاد ، ووجود ملوك محليين في مدن الصين البالغ عددها مائتين ، والأبواب الأربعة التي لكل مدينة ، وعادات الصين في دفن الموتى ، وانتشار الخط والكتابة لا فرق في ذلك بين غني وفقير أو صغير وكبير ، وأن أي ملك عندهم لا يتولى

الحكم إلا بعد الأربعين من عمره ، حرصاً على إقامة العدل ،  
 ووجود قضاة للفصل بين الناس ، وفي كل مدينة مدرسة ومعلم ،  
 ويتعلم الفقراء بها هم وأولادهم على نفقة بيت المال ، وبينما ترى  
 النساء في الصين حاسرات سافرات ترى الرجال يضعون أغطية  
 على رؤوسهم ، ومنازلهم من الخشب ، وهم جميعاً يحبون الملاهي .  
 وبعد مائة عام تقريباً من هذه الرحلة يحدثنا أبو دلف مسرع  
 أيضاً عن مشاهداته في الصين ، ومظاهر العمران فيها بعد اختراقه  
 الآفاق من المغرب إلى المشرق ، ووصفه الدقيق للمعيشة التي عليها  
 كل قبيلة مر بها في طريقه إلى الصين من مأكّل وملبس ومشرب  
 وكذلك العادات والجنسيات والعبادات السائدة فيها ، حتى ينتهي  
 إلى وصف الحياة في ( سندابل ) حاضرة الصين ، كما رآها .  
 وفي القرن السابع الهجري يتحدث القزويني في «عجائب المخلوقات  
 وغرائب الموجودات» عن الهيكل الوثني المستدير المقام بأقصى الصين ،  
 وأبوابه السبعة ، والقبّة الضخمة العالية ، والجوهرة التي في أعلاها  
 كرأس العجل وتضيء جميع أقطار الهيكل ، والبئر الواسعة التي  
 فيه ، والطوق الذي على رأسها ، وعليه خط قديم معناه : هذه  
 البئر مخزن الكتب التي هي تاريخ الدنيا وعلوم السماء والأرض ،  
 وما كان فيها وما يكون ، ولا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا .  
 وهذا الهيكل مقام على صخرة عالية كالجبل الأشم ، ومن  
 تعرض لهدمه أو اقترب منه عشرة أذرع مات لساعته .  
 ومن عجائبها أيضاً طاحون له حجران أعلاهما لا يتحرك بينما

الأسفل هو الذى يدور ، فيخرج من بينهما دقيق لا نخالة فيه ونخالة لا دقيق فيها ، لا يختلط أحدهما بالآخر .

ويحكى أيضاً أن بالصين قرية يجتمع أهلها كل سنة حول غدير ماء فيها ، فيلقون فرساً كلما أرادت الخروج منه ردها إليه ، حتى يسقط المطر ، فإذا أخذوا من الماء كفايتهم وامتلأ الغدير أخرجوا الفرس وذبجوها فوق جبل مرتفع ، وتركوا لحمها طعمة للطير ، وفي اعتقادهم أنهم إن لم يفعلوا ذلك كل سنة ، كان الحرمان نصيبهم .

وعلى الرغم من الموضوعات المنوعة عن الصين ، المتناثرة في طيات المؤلفات العربية ، فإن لدينا عنها ذخائر لا تنفد ، تضمنتها « مروج الذهب » للمسعودى البغدادى ، و « تحفة النظار » لابن بطوطة الطنجى ، أولهما عاش في القرن الرابع الهجرى ، وقد سمع وقراً كثيراً عن الصين ، والآخر عاش في القرن الثامن الهجرى ، وقد رحل بنفسه وشاهد ، فسجل مشاهداته .

أما المسعودى - كثرخ - فقد لفت الأنظار إلى تاريخ الحضارة الصينية ، عندما جعل سنة ٢٦٤ هـ خدفاً فاصلاً بين عهدين من تاريخ هذه البلاد ، فقد كان ملوك الصين الذى أوجز المسعودى سيرهم صالحين مصلحين سواء فى الداخل أو الخارج ، واتسمت عهودهم المختلفة بالعدل والإصلاح وتوطيد علاقاتهم بغيرهم ، واستمروا على ذلك حتى تمرد أحد العصاة وهو ( ياسر ) فجمع الأشرار حوله ، وأعلن الثورة على الملك ،

وزحف بجيشه إلى مدينة ( عاصور ) الواقعة على نهر الصين العظيم ، واستولى عليها ، ثم على ( خائفو ) ، ومات في المعركة منها أكثر من مائتي ألف ما بين قتل وغريق ، وكان ذلك سنة ٢٦٤ هـ ، وعندها تغير كل شيء .

لقد أمر ( ياسر ) بقطع غابات التوت ، فانقطع الحرير الصيني عن بلاد العرب ، ثم حاصر عاصمة الصين ( حزران ) وانتهى الحصار بهزيمة الملك وجنوده ، ولكنه استنجد - وهو على مدينة ( مد ) على حدود التبت - بملك الترك ابن خاقان . فأنجده بأربعمائة ألف مقاتل تحت إمرة أحد أولاده ، وظلت الحرب بينهما سجالا خلال سنة كاملة ، فكانت الدائرة على ياسر ، ومن التف حوله من ملوك المقاطعات .

وعاد ملك الصين ( يعبور ) ، كما تسميه العامة أي : ابن ماء السماء - وقد أنهكت هذه الحرب الضروس كل قواه ، واستقل كل أتباعه السابقين كل بمقاطعته ، ولم يعد يطمع منهم في غير الولاء الأسمى له ، ومكاتبته باسم « ملك الصين » حرصاً على أمن البلاد وسلامتها من الغارات الأجنبية والفتن الداخلية ، وكان هذا الحدث التاريخي بداية لعهد تقسيم الصين إلى الولايات أو المقاطعات المعروفة إلى اليوم .

ونظر ابن بطوطة إلى الحضارة الصينية نظرة المشاهد لا نظرة المؤرخ ، فقال : « وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة ، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم

الأرض ، ويخترقه النهر المعروف بـ ( آب الحياة ) ومعنى ذلك ( ماء الحياة ) ، ومنبعه من جبال تسمى ( كوه بوزنة - جبل القروذ ) ، ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر ، إلى أن ينتهى إلى ( صين الصين ) ، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة ، وعليه النواير ( السواقى ) الكثيرة ، وبلاد الصين السكر الكثير ، مما يضاهى المصرى بل يفضله ، والأعناب والإجاص ، وكنت أظن أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له ، حتى رأيت الإجاص الذي بالصين ، وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ ( خوارزم ) و ( أصفهان ) ، وكل ما ببلادنا من الفواكه ، فإن بها ما هو مثله وأحسن منه ، والقمح بها كثير جداً ، ولم أرقمحا أطيب منه ، وكذلك العدس والحمص . . . » .

ويتحدث ابن بطوطة أيضاً عن صناعة الفخار الصيني ، ( الخزف ) ، وقد اشتهرت به ( مدينة الزيتون ) ومنطقة ( صين كلان ) ، وشرح طريقة تصنيعه من تراب الجبال ، وتصديره إلى الهند بل إلى بلاد المغرب ، وما لفت نظر ابن بطوطة في الصين ، ضخامة حجم الدجاج ، وضآلة حجم الإوز ، حتى إن الديك الصيني - كما رآه - على قدر النعامة ، وفي مدينة ( كولم ) سبق له أن رأى الديك الصيني ، فلم يصدق حتى رآه بعينه .

وكما عني ابن بطوطة بهذه المظاهر العمرانية في بلاد الصين

زادت عنايته بمظاهر التقدم الاجتماعى ، فلفت أنظارنا إلى الفضائل التى يتحلى بها الفرد والمجتمع ، الحاكم والمحكوم على السواء ، مما سنفصله فى الصفحات القادمة .

وقد حكى تاج الدين السمرقندى — وكان ممن زار الصين ، — فقال : « وبلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد ، ومن قرية إلى قرية » ، كما تحدث عن المدن المشهورة وعلى رأسها قاعدة المملكة ( خان بالق ) ثم ( قراقوم ) قاعدة التتر ، والخنساء ( خانسو أو ) أعظم الموانى الصينية ، ثم ( الزيتون ) وهى ميناء أيضاً ، وكذلك المدن التى ذكرتها الكتب ( ينجو ) و ( خائفو ) و ( خانجو ) و ( سوسة ) .

ولما كانت التبت جزءاً من الكيان الصينى فقد حظيت هى الأخرى بعناية ابن بطوطة وغيره ، وقورنت طباء الصين بظباء التبت ، وجودة المسك هنا عما هناك ، بسبب المرعى ، وتسلطت التبت رديحاً من الزمن على الصين والهند والترك والزنج وغيرهم وكان ملكها يسمى ( الشاه — ملك الملوك ) .

والفيلة كثيرة بالصين كثرتها بالهند ، ويحكى لنا صاحب « السيرة الحلبية » عنها فيقول « رأيت أن ملك الصين كان فى مربوطه ألف فيل أبيض » .

وإذا كان ابن بطوطة قد حدثنا عن حيوان ( الكركدن ) — كما شاهده فى رحلته — ببلاد السند ، وكيف يصاد ، فإن ابن خرداذبة قد وافانا بفكرة عن أهمية « قرن الكركدن » بالنسبة

لأهل الصين ، فيقول إنه إذا شق قرن الكركدن من أوله إلى آخره ظهرت منه صورة بيضاء في صورة إنسان أو دابة أو سمكة أو طاوس أو أى طائر آخر ، فيتخذها أهل الصين مناطق ( أى أحزمة جمع نطاق أو منطقة ) ثمن الواحدة منها يتراوح ما بين ثلثائة دينار وأربعة آلاف دينار .

ويتحدث ابن النديم هو الآخر عن أسرار هذا القرن فيما عرفه من الراهب النجراني الذى دخل الصين ، فيقول إن ( البشان ) أفخر حلية لمقابلة الملوك فى الصين ، وهو القطع التى عليها صور مرسومة من غير رسام على القرن، ولما كان ثمنه غالياً للغاية ، أمر الملك بإبطاله والاستعاضة عنه — فى المثل بين يديه — بمناطق الذهب وما يشبههه ، وعلم الراهب مما سمعه من علماء الصين وفلاسفتها أن الأنثى عند المخاض ، ترتسم على قرن وليدها أى صورة يراها عند الوضع مباشرة ، ذلك الحيوان مما يوجد بالصين وهو غير الكركدن .



## الفصل الخامس

### أهل الصين

#### صدق .. أو لا تصدق :

كل ما أثبتته العرب عن الصين إنما يعد من العجائب والغرائب ، سواء في ذلك روايات الرحالة والمؤرخين والجغرافيين عن غيرهم ، أو شهادات الزائرين بأنفسهم لما لمسوه وعايَنوه ، ومن هنا كانت أكثر المعلومات العربية عن هذه البلاد متضمنة في كتب تم عناوينها عن ذلك مثل « مروج الذهب » و « عجائب البلاد » ، و « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » و « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » و « تحفة النظر في غرائب الأمصار » و « عجائب الأسفار » و « صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار » و « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » و « تحفة الألباب . وتحية الإعجاب » ، إلى هذه العناوين التي تثير الاهتمام ، وتشوق القارئ ، فضلاً عن الحرص على هذه المعاني في تسمية الكتب مثل « نزهة المشتاق واختراق الآفاق » ، وسائر كتب « المسالك والممالك » .

وكان من الطبيعي أن تلقى هذه الغرائب وتلك العجائب من العرب فريقاً يصدق وفريقاً لا يصدق ، احتكاماً إلى العقل ، واستناداً إلى موازين التعديل والتجريح ، خصوصاً وأن العرب

قد أثبتوا براعتهم في «علم الرواية» فكانوا روّاداً مبرزين في تمييز «الخبر» الصادق من الكاذب ، من حيث «المتون» «والأسانيد» على حد سواء .

وقف «الأنخباريون» العرب من أخبار الصين ، مواقف العلماء الخبراء : فلم يأخذوها على علاقتها ، بل أخذوا يمحسونها ، عن طبع أصيل في التأليف المأثور عنهم ، وهذه صورة تاريخية توضح لنا معالم هذه الحقيقة .

يقول الرحالة أبو حامد الغرناطي<sup>(١)</sup> . . . وكنت بمصر سنة ٥١٢ هـ واجتمعت بها بالشيخ أبي العباس الحجازي — وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة ، وكان الناس يحدثون عنه بالعجائب ، فقلت له يا أبا العباس : إني سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب ، والآن أريد أن أسمع منك شيئاً عن عجائب خلق الله تعالى ، — وكان الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر محمد بن الوليد الفهرى حاضراً (ويقصد الطرطوشي عالم الإسكندرية الذي روى عن الحجازي أيضاً فيما يتعلق بالصين ، وأشار إليه في «سراج الملوك» ) ، فقال أبو العباس : قد رأيت أشياء كثيرة ، ولا يمكن أن أحدث بها ، لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب ، فقال الشيخ الإمام أبو بكر (الطرطوشي) يكون ذلك من العوام الجاهل ، وأما العقلاء وأهل العلم فإنهم يعرفون الجائر والمستحيل .

(١) تحفة الألباب وتحية الإعجاب .

من هذا يتضح تماماً أن الثقافة العربية في عنايتها بأخبار الصين من شتى النواحي الطبيعية والبشرية إنما صدرت عن ثقات ، حرصوا على تخليص موضوعاتها من الشوائب والتهاويل ، وعندما أوردوها على حقيقتها ، تناولتها أقلامهم الحرة بالنقد والتمحيص ، ولكن دون تغيير أو تشويه . . . وتلك هي الأمانة.

### شعوب وقبائل :

كان المسعودي أول مؤرخ عربي غنى بتاريخ وأجناس سكان الصين ، ورد أصلهم إلى عابور بن يافث بن نوح الذي عبر نهر بلخ منذ آلاف السنين ، ويمم بأولاده بلاد الصين الأكثر منهم وتفرقوا فيها ، فمنهم : ( الجليل ) سكان جيلان ، والأشروسية ، والصفير ، وهم بين بخارى وسمرقند ، ثم الفراغنة والشاس وأسبجار ، وأهل بلاد العبرات ، فبنوا المدن واشتغلوا بالزراعة ، وانفرد منهم أناس غير هؤلاء سكنوا الصحارى : الترك الحرمج والطغرغر وأصحاب مدينة توسان ( بين خراسان والصين ) ، وهم أشد أجناس الترك بأساً وأقوى شوكة وأضبط نظاماً .

هم إذن بدو وحضر ، كما يفهم من كلام المسعودي الذي كتب ذلك قبل غيره من المؤلفين العرب — فما نعلم — وهو القائل أيضاً إن أهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها ، ويرعون ذلك ، ويتنسب الرجل إلى خمسين

أباً حتى يصل إلى عابور وما بعده . . ولا يتزوج الرجل إلا من أهل الفخذ الذى ينتمى إليه ، « ويزعمون أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية ، وأنه أصبح للبقاء وأتم للعمر » .

وكأنى بالمسعودى لا يقرهم على هذا « الزعم » لأن العرب هم أيضاً « يزعمون » أن الزواج فى الأقارب مدعاة للنسل الضعيف الضاوى ، حسبما يروى عن النبى عليه السلام « اغتربوا لا تضبوا » .

على كل حال ، هذه هى محاولة عربية رائدة لتفهم أجناس الصين ، قام بها مؤلفنا العربى القديم ، وقد عرفنا منه ومن سبقه ولحقه سائر الأجناس الأخرى التى امتزجت بالدماء الصينية على مر العصور بسبب الهجرات التى تلمسنا خطوط تقدمها نحو الصين من آسيا وإفريقية ، من عرب وعجم وزنوج وغيرهم ، فضلاً عن موجات الغزاة المتتابعة التى من شأنها الاختلاط بين الأجناس ، والآن صار عنصر التتار المغول هو الغالب على جميع الأجناس ، وأخذ العرب يضربون المثل بدمامة أهل الصين ، وقصر يأجوج ومأجوج ، ويقول عنهم ابن الوردي إنهم قصار ضخماء الرؤوس .

وقد ذكرنا فى مواضع متفرقة من الصفحات السابقة فترات انتقال العرب إلى الصين ، وعلى ذلك يكون العرب المهاجرون من تبابعة اليمن إلى هضبة التبت ، قبل الإسلام بقرون ، قد أصبحوا عنصراً هاماً فى الشعب بل الشعوب الصينية تميزوا باللون

والسحنة والشعر والأنف والقامة وبالتالي في الفوارق المميزة للحضارات بعضها عن بعض ، « وهم أشبه بالعرب في الألوان والخلق من سائر الأمم » (١) .

كما أن حملة قتيبة بن مسلم التي يعمت شطر الصين في نهاية القرن الأول الهجري كان لها اعتبارها أيضاً في أهل الصين ولا سيما بعد أن تزوج العرب على أثر هذه الغزوة من الصينيات ، فجاء النسل بجنس يحمل الملامح العربية .

وعلى كل حال فإن منافذ العرب إلى الصين ظلت مفتوحة على الدوام ، عن طريق البر وطريق البحر ، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة ، لأن إحدى جزر الخليج العربي كانت عامرة بقبائل عربية ، ومنها كان الصيادون والتجار ينتقلون إلى الهند ومنها إلى الصين ، على أي نحو من الأنحاء .

### اللغات في الصين :

بلاد شاسعة الأرجاء كالصين تمتد أربعة أشهر في ثلاثة ، وتقوم في أرجائها المترامية الأطراف جبال وهضاب وسلاسل ، وشعاب وفجاج . . من الطبيعي ألا تكون وسيلة التفاهم فيها لغة واحدة . . وهذا الأمر قد شغل مؤلفي العرب القدامى منهم قبل المحدثين . . فالإصطخري المعروف بالكرخي — الذي هو من رجال القرن الرابع الهجري — يقول « ولمملكة الصين السنة

( ١ ) دمشق : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر .

( لغات ) مختلفة . . فأما أرض الصين والتبت فلهم لسان ( لغة )  
مخالف لهذه الألسنة <sup>(١)</sup> . . .

وإذا عرفنا أن الإصطخري — الذى نقل عنه ابن حوقل  
أيضاً هذه العبارة — قد اعتمد على كتاب « صور الأقاليم »  
لأبى زيد البلخى ، تبين لنا أن العرب لم يغفلوا هذه الجزئية من  
مقومات المجتمع الصينى .

كما أن « أبا دلف فى عبوره بالقبائل التى عدّها قبل  
دخوله الصين ، حدثنا عن العرب البادية المقيمين بموضع يقال  
له ( القليب ) استقر فيه من تخلف من التبابعة عند غزوهم  
بلاد الصين وقال عنهم « يتكلمون بالعربية القديمة ، لا يعرفون  
غيرها ، ويكتبون بالخميرية ولا يعرفون قلمنا » <sup>(٢)</sup> .

### الديانات فى الصين :

لم يترك العرب جانباً من جوانب الحياة عند الصين إلا  
ذكروه فى مؤلفاتهم ، ولا سيما الديانة ، وقد رأينا فيما سبق كيف  
احتفظوا بعقائدهم عندما دخلوا الصين قبل الإسلام وبعده .  
مع البداوة والحضارة سواء بسواء ، كما أن المؤرخين والجغرافيين  
لم يغفلوا ذكر الديانات السائدة ، كل فى العصر الذى عاش  
فيه ، وكل حسبما بلغه أو شهد بنفسه .

( ١ ) المسالك والممالك .

( ٢ ) ياقوت : معجم البلدان .

فهذا الرحالة العربى سليمان البصرى ، يحكى لنا - عند زيارته للصين - أن أهلها يعبدون الأصنام « ويزعمون أن الأصنام تكلمهم ، وإنما يكلمهم عبادها ، وهم يؤمنون بالتناسخ » وتناسخ الأرواح من الظواهر الدينية التى عرفت منذ أقدم العصور فى الهند والصين .

ويقول المسعودى إن مذهبهم المانية ( أى المانوية أتباع مانى ) والسمنية وتشبه عبادتهم عبادات قريش قبل الإسلام ، إذ يسجدون للأصنام ، أما عقلاؤهم فإنهم يعبدون الخالق ، ويتخذون مع ذلك تماثيل من الصور والأصنام يتوجهون إليها بالعبادة ، وقد انتقل إليهم هذا الدين من الهند بحكم الجوار ، وكثيراً ما كانت تشب الحروب بين الترك والصين ، فى حالة الاختلاف بينهما حول ذبح الحيوان ، وعقيدة الملك فيه . . . ذلك أن ملوكهم ذوو آراء ونحل متعددة ، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن أحكام العقل والحق ، فى إقامة القضاة والحكام ، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك .

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى ، يحدثنا العالم البغدادى المشهور ( ابن النديم ) صاحب « الفهرست » عن أحوال أهل الصين ، ولا سيما عن علماء موثق بهم كأبى بكر الرازى ، وأبى دلف عن طريق التواتر ، وجماعة زاروا الصين ومن بينهم راهب نجرانى قدم منها سنة ٣٧٧ هـ ، أو رجل صينى لقيه قبل سنة ٣٥٦ هـ أو جماعة من أهل أندلس الصين .



أما الراهب فقد قص على ابن النديم أن أموراً جرت في الصين قضت على المسيحية بها ، وانتهت بتخريب كنائسها ، وإفناء النصارى جميعاً اللهم إلا رجلاً واحداً . . ولم يذكر لنا السبب في ذلك . . وقال أيضاً في موضع آخر من كتابه إن صورة ( البغبور = ابن السماء = ملك الصين ) موجودة بالمعبد الكبير بمدينة ( غراز ) وهي في أرض ( خاتقون ) ، وذكر أن مذهب أهل الصين الثنوية والسمنية وأن العامة يعبدون الملك ويعظمون صورته ، وهم إذن يعبدون الأصنام ويقدمون الملوك . ويقارن أبو حامد بينهم وبين أهل الهند لأنهم مثلهم لا يأكلون الحيوان ولا ما يخرج منه كاللبن والعسل ، ويحرمون على المسلمين ذبح البقر ، وكل ما عدا ذلك فهو لهم مباح . وقد سبق أن أشرنا إلى رحلة أبي دلف إلى الصين ، ويكفي هنا أن نذكر له في هذا المقام عنايته بتعريف العالم العربي بديانات القبائل الصينية التي نزل بأحيائها ، ومنها عرفنا الكثير عن المسلمين الموحدين ، والعلويين الزيديين ، واليهود والنصارى والمجوس والهندوكيين ، وتشريعاتهم ، وقد جاء في « معجم البلدان » لياقوت أن معبد الصين أكبر من مسجد بيت المقدس ، وأن فيه تماثيل وتصاوير ، وفيه أيضاً أصنام ، وبد ( صنم ) كبير بمثابة المعبود الأكبر ، وما قاله اليعقوبي عنهم إنهم يعبدون النار في معابد خاصة أخرى ، ويقول ابن الوردي إنهم أهل أوثان وأهل نيران ويعبدون الشعابين .

وفما ذكره ابن بطوطة في القرن الثامن الهجرى أن « أهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود .. وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة « حى » للمسلمين يتفردون فيها بسكناهم ، ولهم فيها المساجد . . وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم » .

وفي القرن الماضى أحصى بيرم التونسى الأديان فى الصين فى أربعة على النحو الآتى :

١ - ديانة بو : وهى التى كانت سائدة فيما قبل التاريخ بأربعة آلاف سنة ، وفى القرن السادس عشر قبل الميلاد أدخل عليها كونفوشيوس كثيراً من التعديلات ، فعرفت باسم الكونفوشيوسية .

٢ - ديانة لوتسيه : ويعتنقها نحو مائة مليون .

٣ - ديانة بوذا : وقد ظهرت فى أواسط القرن التاسع قبل الميلاد .

٤ - الإسلام : وقد ظهر فى القرن السابع الميلادى ، ويدين به نحو ستين مليوناً ما بين مواطنين وجنود مرتزقة من عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، وقد بلغ عدد المسلمين فى ( پيكين ) العاصمة نحو عشرين ألفاً ، ولهم بها جامع ضخم يسميه أهل الصين ( هوى هوى Hui-Hui ) ، فضلاً عن عشرين مسجداً أخرى كلها لأصحاب المذهب الحنفى السائد

فما عدا اثنين منهما للشيعة ، ويكتب المسلمون على أبواب مساجدهم ( خوى خوى تانغ ) أى محل الجماعة الإسلامية ، و ( تسين جسن سور ) أى معبد الإله الحق ، ويطلق الصينيون على علماء الإسلام ( لاجونو ) أى المعلم الأكبر ، ويسمون جوامع المسلمين ( ليطاسو ) أى محل العبادة الأسبوعية (١) .

### ملوك الصين :

تناول العرب ملوك الصين من جوانب متعددة ، فمنهم من حرص على ذكر تتابعهم الزمنى ، ومنهم من تحدث عن عباداتهم الخاصة وما يختلفون فيه عن سائر الشعب ، ومنهم من تناولهم فى فترات النصر والهزيمة فى الفتن الداخلية من جهة ، وفى الحروب مع غيرهم من جهة أخرى ، وكان أهم ما عُنوا به فى سير الملوك ما اتصفوا به من عدل فى سياسة رعيته ، ورووا عنهم فى ذلك حكايات وأقاصيص .

كتب اليعقوبى عن ملوكهم الأوائل ، حتى ( توتال ) الذى شرع لهم الأحكام والصناعات ، واستمر فى الملك ثمانى وسبعين سنة ، فحزنوا عليه عند وفاته ، وكتب ابن الأثير فصولا ضافية عن التاريخ الحربى لملوك الصين فى مواضع متفرقة من تاريخه حتى القرن السابع الهجرى ، قلما نجد لها فى مؤلفات أخرى

( ١ ) صفوة الاعتبار .

عربية أو غير عربية ، فهو مثلاً عندما يذكر أخبار الصين سنة ٢٦٤هـ يشير إلى حزم ملك الصين الذى وضع حداً للأعمال القرصنة البحرية والمناوشات التى جرت حوادثها بين السفن العربية والصينية ، وكان لتدخل ملك الصين فى الأمر أثره فى تخفيف حدة التوتر التى أصابت العلاقات التجارية بين العرب والصين خلال القرن الثالث .

وكان ملوك الصين يشملون برعايتهم أهل الفن . وكان لهم نظام تقليدى فى تشجيع البارعين منهم فيه ، كما سنتناول ذلك عند الكلام على الفنون فى الصين .

ولما اكتسح المغول بلاد الصين ، وتحولوا عن المجوسية إلى الإسلام ، نهض المؤرخون العرب والفرس بتاريخ هذه الفترة من حياة الملوك طوال القرنين السابع والثامن الهجريين ، فكتب عنهم رشيد الدين الهمداني وابن خلدون والقلقشندي . وتناولوا حروبهم وانتصاراتهم ، وما ترتب عليها من علاقات بالبلاد الأخرى المجاورة وغير المجاورة ، وتأثير هذه الحروب فى الاستقلال المحلى الذى صار طابعاً لملوك المقاطعات وملوك المدن ، مع استمرار الولاء لملك الملوك ، . وعنى العرب أيضاً بذكر السفارات بين ملوك الصين وسلاطين الإسلام بشأن المصاهرة ، والرسائل المتبادلة بين أحمد بن هولاكو التتارى ملك الصين ، والناصر محمد بن قلاوون سلطان الديار المصرية .

وقد رأينا فى حديثنا عن الديانات فى الصين ، كيف

كان العامة يقدسون ملوكهم ، وينظرون إلى أن الواحد منهم ( بغبور ) أى أنه ( ابن السماء ) يسجدون له ، كلما وقعت عيونهم على صورته وتماثيله .

ومما حكاه الراهب النجرانى لابن النديم أن فى مدينة ( بخران ) بأرض الصين معبداً ضخماً طوله عشرة آلاف ذراع وعرضه مثله ، مصنوع من الصخر والآجر والذهب والفضة ، وهو مخصص للسجود أمام صورة الملك ، والطريق إليه مخفوف بالتماثيل والصور والأصنام « تهر عقل من لا يعرف كيف هى وأى شىء موضوعها » .

ويعقب الراهب على ذلك وهو يتحدث مع ابن النديم<sup>(١)</sup> بقوله :  
الراهب : والله يا أبا الفرج أن لو عظم أحدنا من النصارى واليهود والمسلمين الله جل اسمه تعظيم هؤلاء القوم لصورة ملكهم ، فضلاً عن شخص نفسه ، لأنزل الله له القطر ( المطر ) ، فإنهم إذا شاهدوها وقع عليهم الإفكل ( الخوف ) والرعدة والخرع ، حتى ربما فقد الواحد عقله أياماً .

ابن النديم : ذاك لاستحواذ الشيطان على بلدهم ، وعلى تجملتهم ، يستغويهم ليضلهم عن سبيل الله .

الراهب : يوشك أن يكون ذلك .

ويميز ابن النديم حسبها قيل له — بين دين الشعب ودين الملوك فيقول : « ومن سنة الصين تعظم الملوك والعبادة لها . على هذا أكثر العامة ، فأما مذهب الملك وأكابر الناس فثنوية وسمنية . » وعلى ذلك تكون عبادة الملوك ( مانوية ) نسبة إلى ( ماني ) القائل بإلهين اثنين — ومنها اشتق المذهب — هما النور والظلام . هذا ويعتبر ملوك الصين أنفسهم ملوك الناس ، فقد رأينا في الحديث الذي دار بين ابن وهب القرشي سنة ٢٥٦ هـ وبين ملك الصين أن أشهر ملوك العالم في ذلك الوقت من وجهة نظر الصين خمسة ، وعلى رأسهم ملك العرب وهو الخليفة العباسي ببغداد على اعتبار أن الإمبراطورية الإسلامية في عصر بني العباس تقع في وسط الدنيا ، وأن جميع الممالك محيطة به ، وبلى الخليفة العباسي في الترتيب : ملك الصين ، وهو في نظر نفسه « ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا ، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكه من رعيتنا ، فنحن ملوك الناس . . » ثم يليه ملك الترك ، فملك الهند ، وأخيراً ملك الروم . .

وقد نلخص صاعده الأندلسي — وهو من أهل القرن الخامس الهجري كما نعلم — في « طبقات الأمم » ترتيب ملوك العالم في نظر ملك الصين فقال « وكان ملوك الصين يقولون إن ملوك الدنيا خمسة ، وسائر الناس أتباع فيذكرون ملك الصين وملك الهند وملك الترك وملك الفرس وملك الروم ، وكانوا يسمون ملك

الصين ملك الناس ، لأن أهل الصين أطوع الناس للمملكة ،  
وأشدّهم انقياداً للسياسة .

والملابس الحريرية هي الشائعة بين جميع أهل الصين من  
عامة وخاصة حتى الملوك صيفاً وشتاءً ، وإن كان الملوك  
يتميزون عن غيرهم في نوع الحرير الذي يلبسونه .

### العدل . . عند ملوك الصين :

اشتهر ملوك الصين عند العرب بأن الملك لا يتولى العرش  
إلا بعد الأربعين ، ليستكمل القدرة على تحمل الأعباء ، وإقامة  
موازين العدل في الأحكام وسجلوا عنهم الحكايات والقصص ،  
وكذلك توليتهم القضاة والحكام والموظفين في سلم الوظائف ،  
ومن عرفوا بحسن السيرة والاستقامة ، وعزلهم بل تأديبهم كل من  
يسىء إلى سمعة الحكم ، فشهد لهم الغرناطي بأنهم « أهل عدل  
وإنصاف »<sup>(١)</sup> وما ذكره سليمان التاجر السيرا في أن رجلاً مسلماً كان  
يتولى الحكم في ( خائفو ) مجتمع التجار ، من قبل ملك الصين<sup>(٢)</sup> .  
وما حكاه سليمان أيضاً عن العدل الذي كان يسود بلاد  
الصين من أقصاها إلى أقصاها ، أنه كانت توجد في كل  
مدينة شيء يسمى ( الدرا ) وهو جرس يوضع على رأس الحاكم ،  
مربوط بحبل ممتد على طول الطريق على مسافة فرسخ ، فمن  
كانت له مظلمة من العامة حركوا الحبل ، فيدق الجرس . فيؤذن

( ٢ ) أخبار الصين والهند .

( ١ ) تحفة الألباب .



لصاحب الشكوى بالثول بين يدي الملك لعرض مظلّمته حتى يعود راضى النفس ، وقد أخذ حقه كاملاً .

وأورد المسعودى فى « مروج الذهب » قصة طريفة لها دلالتها على تمسك ملوك الصين بأهداب العدل ، ولا سيما بالنسبة للواردين على بلادهم من الأغراب ، وموجز القصة أن تاجراً من سمرقند غادر خراسان فى تجارة إلى العراق ، وانحدر من البصرة بالبحر حتى وصل (عمان) ثم (كَلّة) ، وعندها ينتصف الطريق إلى الصين ، وعندها أيضاً تنهى مراكب سيراف وعمان فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، قادمة بمتاجرها من الصين (١) ومن (كَلّة) ركب سفينة صينية إلى ميناء (خائفو) وهناك طلب منه الخصى مبلغاً جسيماً كرسوم جمركية على متاجره ، اعتماداً على تبعيته للملك وحظوته عنده ، فتوجه التاجر إلى العاصمة (أنمو) ليرفع شكواه إلى الملك وقد لبس الحرير الأحمر - كما تقضى بذلك التقاليد بالنسبة للقادمين من بلد بعيد.

وقبل أن يمثل بين يدي الملك ، تلقاه الحجاب ، واستمعوا إلى شكواه - كما هى العادة - واستوثقوا من كلامه حتى لا يتعرض للقتل إن كان كاذباً ، أو مائة ضربة بالخشبة إن بدا عليه الاضطراب ، ثم استأذنوا له على الملك ، فأذن له واستمع

---

(١) قبل هذا الوقت كانت مراكب الصين تصل إلى عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة .

إليه ، ومن حوله الوزير وصاحب الميمنة وصاحب القلب  
وصاحب الميسرة من قواد الجيش ، كما هو الشأن عند الملومات  
والحروب ، وأصدر أمره إلى كل واحد منهم بالكتابة إلى المرعوس  
التابع لهم في كل ناحية من نواحي المملكة ، ومنها ( خائفو ) ،  
أشبه ما نفعل اليوم بتوزيع نشرات بأوصاف المجرمين لضبطهم ،  
وكتب الملك هو الآخر إلى حاكم الميناء ، فذاع الأمر وشاع في  
جميع أرجاء الصين على اتساع رقعتها وتباعد أقطارها .

وجيء بالخصى فجرده الملك من وظيفته ووبخه على فعلته ،  
وهدده بالقتل ولم يأمر بقتله مراعاة لسابق خدماته للملك ،  
وأنزله من عمله ، وجعله حارساً على المقابر الملكية ، لأن من  
لا يستطيع تدبير شئون الأحياء ، جدير به أن يقوم بحراسة الأموات .  
أما التاجر الخراساني فقد لقي من الملك كل إنصاف ،  
ورجع وهو يلهج بالثناء على ما حباه به من عدل وتعويض سخى .  
والقضاء عند الصين يحكم بقتل الكاذب ، والمفترى على  
أى موظف بغير وجه حق ، والظالم ، والسارق ، والزاني<sup>(١)</sup> .  
والكافر إذا قتل مسلماً بالصين يقتل هو وأهل بيته ثم تصادر  
أموالهم وممتلكاتهم ، والمسلم إذا قتل كافراً ، دفع الدية فقط  
ودية الكافر عندهم حمار<sup>(٢)</sup> .  
وملوك الصين يتخذون من ( الحصيان ) مستخدمين في

( ١ ) تاريخ اليعقوبي . ( ٢ ) صبح الأعشى .

جباية الخراج ، وبعض المهمات ، وبذلك يصلون إلى المناصب التي عن طريقها يحظون بالقرب من البلاط ، ولهذا يعتمد أهل الصين إلى إخصاء أولادهم حباً في الرياسة ، وطلباً للمناصب<sup>(١)</sup> ، وكثيراً ما كان أحدهم يعيثُ فساداً استناداً إلى منصبه ، فيكون القتل مصيره المحتوم .

### فنون الصين :

كان العرب أسبق الأمم احتفاءً بفنون الصين ، وإشادة بها ، وتقديراً لبراعتهم فيها ، « فهم من أحق خلق الله كفاً بالنقش والصناعة ” الفن “ » كما يقول الرحالة العربي التاجر سليمان البصري ، ويؤكد المسعودي هذه العبارة وهو الذي تلقى كثيراً من معلوماته القيمة مباشرة عن أبي زيد السيرافي ، مكمل رحلة مواطنه سليمان ، فضلاً عن أنه أحد الرواة عن ابن وهب القرشي في مشاهداته الخاصة بالصين .

لهذا نرى في « مروج الذهب » خلاصة هذه المعلومات الصادرة عن ثقات أمراء ، ولا سيما فيما يتعلق بنبوغ أهل الصين في فنونهم ، لا يتقدمهم فيها أحد من سائر الأمم ، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه ، فيقصد به باب الملك ، يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع ، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة ، فان لم يُخرج أحد فيه عيباً ، أجاز

(١) مروج الذهب .

صانعه ، وأدخله في جملة صناعه ، وإن أخرج أحد فيه عيباً  
اطرحه ولم يجزه .

ويروى — على سبيل المثال — أن أحد الرسامين في الصين ،  
رسم سنبله سقط عليها عصفور ، على ثوب من الحرير ، وكان  
من البراعة لدرجة أن كل من رآه ظنه عصفوراً حقيقياً فوق  
سنبله ، وظل الرسم معروضاً حتى رآه أحدهم فأظهر فيه عيباً ،  
ولما طلبه الملك ومثل بين يديه ، سأله عن العيب الذي في الرسم  
فقال : إن العصفور إذا سقط على سنبله أمالها ، بينما الرسام  
تركها قائمة على عودها ، فأخطأ . . وعند ذلك اقتنع الملك  
بوجهة نظره ، ولم يكافئ الفنان بشيء .

وكان ملوك الصين يهدفون من وراء ذلك إلى التشجيع على  
نشر الوعي الفني ، والإفادة من آراء الناقلين للنهوض بالفنون ،  
أو كما قال المسعودي حرفياً « وقصدتهم بهذا وشبههه الرياضة لمن  
يعمل هذه الأشياء ليضطربهم ذلك إلى شدة الاحتراز وإعمال  
الفكر ، فيما يصنعه كل واحد منهم بيده » .

وقد أعطانا ابن النديم فكرة واضحة عن الخط الصيني .  
وطريقة الاختزال السريع في الكتابة الصينية التي هي نوع من  
النقش يتطلب حذقاً ومهارة حتى إن أخف يد لا تستطيع أن  
تكتب في اليوم الواحد أكثر من ثلاث ورقات ، وأهل الصين يكتبون  
ديانهم وعلومهم في المراوح ، وقد شهد ابن النديم كثيراً منها .  
أما طريقة الاختزال في الكتابة عندهم فيسميها « كتابة

المجذوع » ويشرحها بقوله : « لكل كلمة تكتب بثلاثة حروف وأكثر صورة واحدة ، ولكل كلام يطول شكل من الحروف يأتي على المعاني الكثيرة ، فإذا أرادوا أن يكتبوا ما يكتب في مائة ورقة ، كتبوه في صفحة واحدة بهذا القلم » ثم هم يقدرّون على أن يبسطوها كما كانت بدون إخلال بتفاصيلها .

ويحدثنا محمد بن زكريا الرازي أيضاً عن رجل من الصين حضر عنده نحو سنة تعلم فيها العربية قراءة وكتابة في خمسة أشهر حتى صار فصيحاً سريع الكتابة ، وقبل أن يسافر إلى بلاده بشهر طلب من الرازي أن يعلم عليه كتب جالينوس وعددها ستة عشر كتاباً ، فقال له الرازي إن الوقت ضيق ، وليس شهر كافياً لذلك ، ولكنه استعمل طريقة الاختزال الصينية في كتابة هذه المؤلفات الضخمة في أقرب وقت ممكن ، حتى لقد كان الرازي وتلاميذه يملّون عليه بأسرع ما يستطيعون ، وهو يكاد يسبقهم في كتابة ما يملّ عليه .

وهذه الطريقة من الصعوبة بحيث لا يتقنها الذكي السريع في أقل من عشرين سنة ، أما المباد الصيني المشهور فقد وجد محظه هو الآخر من عناية العرب ، فقال ابن النديم إنهم يركبونه من أنحلاط تشبه الدهن الصيني ، وقد رأى منه ما يشبه الألواح مختوماً عليها صورة الملك ، وقال إن القطعة الواحدة تكفي زمناً طويلاً مع دأومة الكتابة وقلماً تنند ، وفي « الفهرست » مثال للخط الصيني القديم .

وإذا كانت الصين قد تخلفت في مضمار العلوم عن غيرها — في نظر صاعد الأندلسي — فإنها لقيت من كتابه « طبقات الأمم » مكانتها في ذروة السلم الفني ، فيقول عنهم : « وحظهم من المعرفة التي بزوا فيها سائر الأمم ، إتقان الصنائع العماية ، وإحكام المهن التصويرية ، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب ، في تجويد الأعمال ، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع » .

أما أبو حامد فلا يستطيع أن يكتم إعجابه بالفنون الصينية فيقول بصدد كلامه عن أهل الصين « ولهم أنواع من الصنائع ، لا يهتدى إليها غيرهم كالفخار الصيني ، والديباج وغير ذلك » . وقد أهدى ملك الصين لصاحب مصر الأفضل بن أمير الجيوش نفائس وطرائف لا يمكن تقدير قيمتها بمال منها — كما يقول أبو حامد — قطعة من عود هندي أسود يختم كالشمع . وبعض الأواني الصينية التي تشبه الباقوت المحرم ، وقد أهدى أحد أولاد أبي العباس الحجازي — الذي كان يزور الصين — أبا حامد وهو بالإسكندرية ، بعض التحف الصينية مثل العود الفائق ، وورق الصين الأزرق والأحمر ، عليها تصاوير صينية من الذهب تفوق الديباج الرومي .

وكان عبد الرحمن الصيني من التجار الذين عرفوا الصين وعاد إلى بلاده المغرب بأموال طائلة ، وكان يتحدث عن عجائبها ، ويعرض لنفائسها ، وكان عنده « أصل ريشة » من جناح الرخ .

وهذا الأصل يتسع لقربة من الماء مما كان يثير إعجاب الناس .  
 وفي الصين — كما يقول أبو حامد أيضاً — « مناديل الغمر »  
 إذا اتسخت ألقيت في النار فتعود نظيفة ولا تحترق ، وإذا  
 كانت لكل بلد من بلاد العالم خصائص ، فإن حرير الصين ،  
 قد بلغ شهرة في مختلف العصور ، لم يبلغها سواه ، من حيث  
 النوع ، ومن حيث النسيج ، والصباغة ، والرسومات التي تضاف  
 عليه كل روعة ، وكذلك قراطيس سمرقند التي غطت على  
 قراطيس مصر في المشرق ، مع أن قراطيس مصر هذه لا تفوقها  
 شهرة عند أهل المغرب .

ويشهد الدمشقي لأهل الصين أيضاً بهذه البراعة في فن  
 التصوير فيقول : « وهم أحذق الناس بالمهن والصناعات ولا سيما  
 التصوير ، حتى إن الرجل يفرق في تصويره بين ضحك الهازئ  
 والشامت والمتعجب والمسرور »<sup>(١)</sup> .

وكلمة « صينية » كان لها مفهومها الخاص في المؤلفات  
 العربية ، فقد كانت تعني كل طرفة أو تحفة كائنة ما كانت  
 كالأواني والملابس والتماثيل والتصاوير ، لأن الصين وحدها  
 قد اقتصت بذلك كله وحدها دون غيرها من البلاد ، وفي  
 هذا يقول الغرناطي : « والعرب تقول لكل طرفة من الأواني وما  
 أشبهها — كائناً ما كانت (صينية) لاختصاص الصين بالطرف »<sup>(٢)</sup> .

( ٢ ) تحفة الألباب .

( ١ ) نخبة الدهر .



وكان حديث ابن بطوطة عن فنون الصين حلقة متميزة من تلك السلسلة الذهبية التي انتظمت إعجاب العرب في مختلف العصور. إذ يقول : « وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً لها ، وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه ، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم ، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً ، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أني ما دخلت قط مدينة من مدنها ، ثم عدت إليها ، إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد "الورق" ، موضوعة في الأسواق ، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمرت على سوق النقاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زى العراقيين ، فلما عدت من القصر عشيّاً ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد "ورقة" قد ألصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئاً من شبهه ، وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك ، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم . . . (١) وقد رأينا فيها مضي شدة اهتمامهم بصناعة التماثيل التي كانوا يعبدونها ، ويقيمون

لها المعابد « الهياكل » ، وما يضعونه من التحف والصور فيها ،  
مما تزخره أيديهم البارة .

وعلى ذلك يكون أهل الصين أول من ابتكر فن التصوير  
لخدمة العدالة ، فإن الباعث لهم على تصوير الأغراب بهذه  
الدقة وتلك البراعة ، هو — كما يقول ابن بطوطة — أن الغريب  
إذا فر من بلادهم لسبب أو لآخر ، بعثوا صورته إلى البلاد  
للبحث عنه ، واتخاذ الإجراءات القانونية معه .

وقد رأينا في المقابلة التي تمت بين ابن وهب القرشي وملك  
الصين ، كيف أن البلاط الصيني كان يحتوى على صور  
للأنبياء : نوح . موسى . عيسى . محمد ، وكل صورة تعطى  
فكرة عن رسالة كل نبي ، وخصائص قومه . . ومع ذلك حرص  
أهل الصين على رسم أشياء معروفة عنهم ، فكان انتشارها في  
الخارج إيجاء بمصادرها . من ذلك مثلا بعض الرسوم الخرافية  
كالتنين الصيني ، والطيور ، والحيول والكركدن . وغيرها مما  
تحلت به التحف من الذهب والفضة والخزف والبللور والملابس  
الحريرية والستائر والأواني والمجوهرات .

تحف الصين . . عند العرب :

لم يذهب عربي إلى الصين وعاد منها إلا ومعه « صينية »  
بالمعنى الواسع ، وفي أي وطن يكون ذلك العربي تخظى التحف  
الصينية هذه بالعجب والدهشة . . فطالما حرص الأكابر على

اقتنائها من ملوك وسلاطين ووزراء وتجار ، وطالما حفلت بها القصور والدور ، وقاعات العروش في المشرق والمغرب ، سواء كان هذا الاقتناء عن طريق الشراء من التجار ، أو عن طريق الإهداء من ملوك الصين ، أو عن طريق الاستيلاء عليها إبان الحروب والغزوات .

في سنة ١٣٤ هـ غزا خالد بن إبراهيم أهل "كش" ، فانتصر على ملكهم ، واستولى على كثير من الأواني الصينية المزركشة<sup>(١)</sup> والمطعمة بالذهب ، فضلا عن السروج والحرير والطرف والتحف التي لم يكن قد رآها أحد من قبل ، وكلها من صنع الصين ، وكان في بغداد كما يقول اليعقوبي<sup>(٢)</sup> : سوق خضير ، وكان يباع بها نفائس الصين وحدها فهي معدن طرائف الصين على حد تعبيره .

وكان بالكوفة في القرن الثاني الهجري عدد من الأسرى الصينيين ، تعلم منهم العرب كثيراً من فنونهم الدقيقة مثل نسج الأقمشة الحريرية الخفيفة ، وصناعة التحف الذهبية والفضية ، فضلا عن النقش والتصوير .

ومن ثغور الصين كان العرب يشترون المصنوعات الحريرية المختلفة ومنها الفرند ( الحرير الملون لصنع الثياب ) والكيمخا ( الحرير المشجر ) . فضلا عن المسك والعود وسروج الخيل

( ١ ) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .

( ٢ ) البلدان .

والسمور ( الفراء ) والخزف (١) .

وفي سنة ٤٢٣ هـ بعث أمير بغداد إلى الخليفة العباسي ثلثمائة مبخرة صينية ، بينما كان من كنوز الوزراء الفاطميين بمصر مقادير ضخمة جداً ومنوعة من الخزف الصيني . و مصر اشتهرت الأواني البللورية الواردة من الصين ، وقد تحدث عنها الغزولي المتوفى سنة ٨١٥ هـ في كتابه (٢) ، كما أن المقرئ المؤرخ لم يفته الحديث عن عظمة أهل الصين في صناعة ( التكفيت ) أي تطعيم المعادن بالذهب والفضة ، عند الكلام على سوق الكفتين بمصر ، وكذلك الكداهي ( الأواني الفضية ) المصدرة من الصين . وقد اكتشفت بعثات الآثار في أطلال القسطنطين بعض التحف الصينية التي شغلت الأثريين طويلاً بالبحث عن مصادرها .

ونستطيع أيضاً الوقوف على بعض الآثار الصينية في البلاط العباسي ولا سيما في أوج عظمة الدولة ، أيام هارون الرشيد ، ولم يكن صاحب « حضارة الإسلام في دار السلام » مبالغاً في جمعه عناصر الكتاب من مصادرها الوثيقة ، التي تذكرنا بالصواني الذهبية تحمل الأكواب والدنانير في الأفراح . . وما كان لبلد في العالم أن يبلغ ما بلغه أهل الصين من الصنعة والبراعة وحسن الذوق في صناعة هذه الصواني وتلك الأكواب .

( ١ ) ابن خرداذبة : المسالك والممالك .

( ٢ ) مطالع البدور في منازل السرور .

## العادات والتقاليد :

العادة سلوك منظم يقوم به الفرد فيصبح عنده طبيعة ثانية ، ومن مجموع العادات المنتظمة في الأفراد تتكون خصائص للمجتمع تميزه عن غيره فتسمى تقاليد . . . والعرب منذ عرفوا الصين ، سجلوا انطباعاتهم عن هذه البلاد ، ولكنها جاءت متناثرة بين صفحات مؤلفاتهم ، ومع ذلك كان لهم أيضاً فضل السبق على غيرهم في التقاط هذه العادات والتقاليد .

فقد ذكر سليمان البصرى أن أهل الصين مغرمون بالملاهي ، وأن كل من قتل بالسيف عندهم أكلوا لحمه ، وبيوتهم من الخشب ، ويتزوج الرجل منهم ما شاء من النساء . . . إلى غير هذه الأمور التي تندرج تحت رعوس موضوعات مختلفة ، وقد سار على نهجه أبو زيد السيرافي فذكر الكثير عن طعامهم وملبسهم ، وغطاء الرأس عند الرجال والنساء ، وشيوع القراءة والكتابة عندهم ، وعاداتهم في دفن موتاهم ، وقال فيما قال : « وليست لهم نظافة ، ولا يستنجون بالماء » . ومن هذا نرى أن سليمان وأبا زيد كانا لا يتركان صغيرة ولا كبيرة عن الصين إلا وكان لها نصيب فيما يرويان أو يكتبان ، مع الموازنة بين ما عند الأمتين من نظائر وفوارق .

وحدثنا المسعودي عن الزواج فيما بين الأفخاذ فلا يتعدها على زعم أن في ذلك صحة للنسل وقوة للبنية وأطول في البقاء . ولم

يفته الحديث عن عناية ملوك الصين بإقامة العدل ، وضبط المعاملات وفق أحكامهم السائدة .

وكان أهل الصين أسبق الأمم إلى « السجل المدني » وإحصاء المواطنين وجيرانهم في البلاد القريبة والبعيدة ، في دواوين يعمل بها موظفون مختصون ، وكل مسافر سواء كان صينيّاً أو غريباً عليه إذا أزمع الانتقال أو السفر أن يكتب اسمه وعمره ومتاعه وحاشيته وأهله وعبيده حتى يصل إلى مقصده ، حتى لا يتعرض لأي سوء ، فيكون ذلك عيباً في حق ملك البلاد ، وكذلك كانت عادة أهل الصين في موانئهم ، حيث يصعد أمير البحر ورجاله إلى سطح كل مركب قادم أو راحل لإحصاء المسافرين جميعاً من التجار ورجال البحرية ، والمستخدمين ، وكان صاحب الجنك أي المركب مسئولاً أمام أمير البحر عن كل من يسافر معه فإذا رجع وليس معه أحد من المسافرين سبق قيده في القائمة تعرض للحساب والعقاب ، وعليه أن يثبت أنه مات أو هرب أو تخلف لسبب ما في بلد ما وهكذا ، وعلى أصحاب السلع أن يثبتوا كل ما معهم من أموال ومتاجر أمام « حفاظ الديوان » أي موظفي الجمرك حتى لا يتعرضوا للغرامة في حالة إخفائها عنهم وكان ابن النديم والمسعودي وابن بطوطة في طليعة المؤلفين العرب اهتماماً بهذه الخاصية التي انفردت بها الصين ، غير أن ابن بطوطة يزيد في تعليقه على تغريم التاجر إذا أخفى شيئاً عن موظف الجمرك عند الإحصاء فيقول : « وذلك نوع من الظلم ،

ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين ، اللهم  
إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه .

ومن العادات العجيبة في الصين أن أحدهم إذا مات ظل  
بمنزله في حفرة من الخشب ستة كاملة ، ثم يدفن في ضريح  
بالحد ، ويحزن عليه أهله ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام  
وثلاث ساعات ، ومن خالف ذلك من مراسيم الحزن والحداد  
ضرب رأسه بالخشب ، وقيل له : أنت إذن قاتله . ويظل الميت  
بلا دفن حتى يحين الشهر الذي ولد في مثله ، وفي نفس اليوم  
وفي نفس الساعة ، وفي اليوم الذي يشيعون فيه موتاهم إلى مدافنهم  
يزدان الطريق بأنواع الديباج والحرير ، كل حسب مكانته ،  
فإذا عادوا بعد الدفن أعطوا أموال الميت لمن يتبعه<sup>(١)</sup> ، وهم  
كالهنود يحرقون الموتى كما يقول ابن بطوطة .

وهم نباتيون لا يأكلون الحيوان ومنتجاته ، ويحرمون على  
المسلمين أن يذبحوا البقر ، ويبيحون لهم ما عدا ذلك ، وإذا  
مرض أحدهم أعطى الجزار من المال ما ترضى به نفسه عدة  
أيام نظير تأجيله ذبح الحيوان عدة أيام على قدر ما يرضيه<sup>(٢)</sup> ،  
ومن قتل حيواناً قتل<sup>(٣)</sup> وكفار الصين يأكلون الخنازير والكلاب  
حسبما شاهد ابن بطوطة في رحلته إلى بلادهم ، كما أنهم  
يبيعونها في الأسواق .

وإذا مات غريب في بلادهم لا يتعرض أحد لأمواله

(١) الفهرست . (٢) تحفة الألباب . (٣) معجم البلدان .



ومتروكاته وأولاده ونسائه ، ويهتم أهل الصين بالحلية والزينة ، ويتفاوت هذا عن ذاك في النوع والرسم بالنسبة للثياب المشتركة فيما بينهم ، المصنوعة من الحرير صيفاً وشتاء ، « وأشرف ما يتحلون به قرون الكركدن لأنها إذا بُشرت ظهرت منها صور مدهشة عجيبة كاملة النقش والتخطيط ، فيتخذون منها مناطق "أحزمة" ، ويفتخرون بها ، فتبلغ قيمة المنطقة "الحزام" الواحدة أربعة آلاف دينار » (١) .

وهم يستكثرون من الحصيان لاستخدامهم في البلاط الملكي ، ويعهدون إليهم بشتى الوظائف ، فيصلون إلى أسمى المناصب الرئيسية ، فيزدادون من الملك قرباً ، لهذا يطمع أهل الصين في وصول أولادهم إلى هذا الشرف ، فيخصونهم منذ نعومة أظفارهم ، فإذا وصلوا إلى ما يريدون اطمأنوا إلى ثقة الملوك بهم ، فمن حاد منهم عن الطريق المستقيم ، وعاث في الأرض فساداً ، قتله الملك أو على الأقل — وهو نادر — حط من قدره وجرده من شرف الوظيفة (٢) .

وإذا طلب أحدهم أن يخطب فتاة من أهلها وأراد الانصراف قالوا له : دع الأرض وخذ البذر ، فإذا خطف الفتاة من غير علم أهلها ، ثم ضبط بها أجبروه على دفع غرامة مالية مصطلح على مقدارها عندهم ، وجبسوه وربما ضربوه (٣) . ويصف ابن بطوطة أهل الصين بأنهم أهل رفاهية وسعة

(١) خريدة العجائب . (٢) مروج الذهب . (٣) الفهرست .

عيش غير أنهم لا يعتنون بطعامهم وملبسهم حتى كبار التجار الأثرياء ، مع عنايتهم بالأواني الذهبية والفضية ، ويجعلون من هذين المعدنين سبائك حتى تبلغ السبيكة أحياناً قنطاراً ، ويضعونها على أبواب منازلهم ، ويقدر هذه السبائك يضع أحدهم نحاتهم في أصابعه ، ومن كان له منهم خمس عشرة قطعة لبس خمسة عشر خاتماً وصار يطلق عليه ( ستى ) كرمز على ثروته الهائلة كما نقول نحن ( مليونير ) مثلاً .

ولا يتعامل أهل الصين بالنقود المعدنية ، وإنما بقطع من الورق على قدر الكف عليها صورة الملك ، فإذا بليت استطاع أحدهم أن يستبدل بها غيرها مجاناً من دار النقود التي يتولى أمرها أحد كبار الأمراء .

وعرفت الصين ( الفنادق ) منذ القدم . ينزل بها الغرباء متى شاءوا . وعلى التزير أن يسلم ماله لصاحب الفندق ، وهو يشتري له كل ما يريد ويحاسبه ، وتنتشر هذه الفنادق في طول البلاد وعرضها ، من ( صين الصين ) غرباً إلى ( ييكن ) شرقاً وعلى كل منها حاكم يقيم به ومعه رجاله وخيالة ، وفي كل مساء يحصى جميع التزلاء ثم يغلق عليهم الباب بنفسه ، وفي اليوم التالى إذا أرادوا الانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل السفر . فتح الأبواب ونادى كل واحد باسمه ، وأرسل معهم من يوصلهم إلى المرحلة التالية من السفر ، حتى تصل إليه من حاكم الفندق التالى شهادة بوصول المسافرين سالمين ، فإن لم يفعل طالبه بذلك .

ويجد المسافر في الفندق كل ما يلزمه من الطعام ولا سيما الدجاج والإوز .  
وتحرص الصين حكومة وشعباً على ألا ينفق الغرباء في  
بلادهم أموالهم في الفساد حتى لا يقال إنهم يخسرونها فيها ،  
وذلك حرصاً منهم على سمعة بلادهم في الخارج .

ويستطيع الغرباء أيضاً أن يتزلوا عند تجار مسلمين معينين  
لذلك ، فإذا نزل غريب بدار تاجر مسلم مثله عليه أن يمحصر  
ماله ، وعلى المضيف أن يتسلم منه أمواله ، وينفق عليه منها بالأمانة  
والصدق ، وما يتبقى يعطى له عندما يريد السفر إلى حيث يشاء .  
وأهل الصين ملوكاً وحكاماً ومواطنين جميعاً يحترمون كل  
قادم عليهم « ويحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ،  
ولا يؤخذ منهم أعشار ( ضرائب ) في بيع وشراء ولا مكس ،  
فياليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة ، فهم  
كانوا أحق بها ، ولكن ذلك للحكمة الإلهية » (١) .

ومن عادة أهل الصين ولا سيما في العصر المغولي أن يستخدم  
( التان - الخان ) آلاف الصناع في مدينته ( خانبسو ) وهم في  
القيود ، ولا يطلق سراحهم إلا بعد بلوغهم الخمسين من العمر ،  
فيستحقون - كسائر المواطنين البالغين هذه السن - رعاية  
الدولة فتنفق عليهم ، وإذا بلغ أحدهم الستين لم تطبق عليه  
الأحكام القانونية ورفع عنه التكليف احتراماً لشيخوخته  
ويسمى الشيخ عندهم ( آطلا ) أى الوالد (٢) .





# دارالمعارف

تقدم هذه المجموعة النفيسة في الآداب الصينية : لمطالعة الأطفال  
والناشئة والشباب :

- |   |                    |   |                 |
|---|--------------------|---|-----------------|
| ١ | شجرة الكرز العجيبة | ٦ | كلام بوذا       |
| ٢ | رأس من الطين       | ٧ | الحماقات الثلاث |
| ٣ | هدية التنين        | ٨ | الحبوب المقوية  |
| ٤ | حكم رادع           | ٩ | الملك شقرا      |
| ٥ | الأصدقاء           |   |                 |

[ من مجموعة قصص وأساطير من الصين ]  
ثمان الكتاب ٦ قروش

- |   |                   |   |               |
|---|-------------------|---|---------------|
| ١ | النهر الأحمر      | ٥ | البطيخ اللؤلئ |
| ٢ | القفاز السحري     | ٦ | الشار         |
| ٣ | جبل الكنوز السبعة | ٧ | لوا الأحذب    |
| ٤ | الصنم السكرى      | ٨ | كنز الف       |

[ من مجموعة حكايات ]  
ثمان الكتاب

[ من مجموعة ]

الصين

الصين المتحررة

[ من مجموعة مكتبة الثق

Bibliotheca Alexandrina



0408178

